



جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف

بناء وهدامون

تأليف

أ.د/ محمد مختار جمعة

وزير الأوقاف

رئيس المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية

١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾

(الأنفال : ٢٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسوله سيدنا محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين .

وبعد :

فشتان بين النقيضين : البناء والهدم ، وإذا كان ديننا دين البناء وعمارة الكون، فإن كل من يأخذك إلى هذا الطريق ، طريق البناء ، طريق العمل ، طريق الإنتاج ، طريق الإلتقان ، طريق الحفاظ على المنشآت العامة والخاصة إنما يأخذك إلى طريق الإسلام ، إلى طريق الوطنية ، إلى طريق الحضارة والرقي ، إلى خير المجتمع وخير الإنسانية ، ومن يحاول أن يجرك إلى طريق آخر عكس هذا الاتجاه ، إنما يأخذك إلى طريق الهلاك في الدنيا والآخرة ، يقول الحق سبحانه : " فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ * أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا " ، ويقول سبحانه : " وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ " .

وإن الباني الحقيقي لا يمكن أن يكون هدامًا ، لأنه صاحب نفس ملأى

بالخير والعمار والحضارة والرقي ، أما الهدامون أصحاب النفوس المريضة الذين قصرت بهم همهم عن أن يجاروا أهل الجد والكفاح والتعب والعرق والعمل والإنتاج ، فلم يجدوا جبراً لنقيصتهم وسترًا لعورتهم وشفاء لإحساسهم بالنقص سوى حسد الأماجد وانتقاص الأفاضل على حد قول القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في مقدمة كتابه الوساطة بين المتنبئ وخصومه "وأهل النقص رجلان : رجل أتاه التقصير من قبله ، وقعد به عن الكمال اختياره ، فهو يساهم الفضلاء بطبعه ، ويحنو على الفضل بقدر سهمه ، وآخر رأى النقص ممتزجًا بخلقته ، ومؤثلاً في تركيب فطرته فاستشعر اليأس من زواله ، وقصرت به الهمة عن انتقاله ، فلجأ إلى حسد الأفاضل ، واستغاث بانتقاص الأماثل ، يرى أن أبلغ الأمور في جبر نقيصته، وستر ما كشفه العجز عن عورته ، اجتذأهم إلى مشاركته ، ووسمهم بمثل سمته "

هؤلاء الهدامون خطر داهم على المجتمع ، وعلى أمنه الاجتماعي والاقتصادي ، يقول الشاعر:

لو كل بانٍ خلفه هادم كفى

فكيف بيانٍ خلفه ألف هادم

ويقول الآخر :

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه

إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

وأخطر من هؤلاء من يقومون بهدم أوطانهم عمالة أو خيانة ، على حد قول
الشاعر العراقي " محمد مهدي الجواهري " :

ولقد رأى المستعمرون فرائسا
منا وألفوا كلب صيد سائبا
فتعهدوه فراح طوع بنانهم
يرون أنياباله ومخالبا
مستأجرين يخربون بيوتهم
ويكافؤون على الخراب رواتبا

إن ديننا دين البناء ينبذ كل ألوان ومعاني الهدم والتخريب ، ويدعو إلى
البناء وعمارة الكون ، وكل ما فيه صالح الإنسانية ، يقول سبحانه : " وَلَا
تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ
مِّنَ الْمُحْسِنِينَ " ، ويقول سبحانه : " فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثُوا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ " ، مما يتطلب منا جميعاً العمل على نشر ثقافة البناء ، وترسيخ
الإيمان به ، وأن ما كان للإنسان فلن يخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن
الناس جميعاً لو سابقوا إنسانا فلن يأخذوا شيئاً كتبه الله له ولن يصلوا إليه ،
ولو دفعوه إلى الأمام جميعاً ، فلن يُوصَّله إلا إلى شيء كتبه الله له ، يقول
سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ
عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوا بِشَيْءٍ لَّمْ يَنْفَعُوا بِشَيْءٍ إِلَّا قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا
عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَّمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ ،
وَجَفَّتِ الصُّحُفُ " ، فما أحوجنا إلى تطهير قلوبنا من الحقد والحسد والعمل

على تعطيل الآخرين أو تعويق مسيرتهم أو محاولات إفشالهم ، فليس كل ذلك ولا شيء منه من الإيمان أو كريم الأخلاق أو القيم الإنسانية النبيلة ، إنما على العكس من ذلك كله ، فهو حقد يأكل صاحبه على حد قول أبي تمام:

اصبر على مضض الحسود

فإن صبرك قاتله

فالنار تأكل نفسها

إن لم تجد ما تأكله

فلنصدق النية والعمل لله (عز وجل)، ثم لوطننا ومجتمعنا ، وأبنائنا وأحفادنا وأنفسنا، ذلك أن الواجب الشرعي والوطني يتطلبان منّا جميعاً وحدة الصف وتضافر الجهود لخدمة ديننا ووطننا وقضايانا العادلة ، وألا يعوق أحدٌ منّا مسيرة الآخر ، بل يشد بعضنا أزر بعض ، فالعمل العمل ، لأنه صمام الأمان ، وحذارٍ حذارٍ من الهدم والتخريب ، فهما سبيل الدمار والهلاك في الدنيا والآخرة ، وعلينا أن نأخذ وبشدة على أيدي الهدامين ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا " فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا ، أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ : " تَحْجِرْهُ ، أَوْ تَمْنَعْهُ ، مِنْ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ " ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ " .

وإذا كان الله (عز وجل) قد رفع شأن العلم والعلماء فقال سبحانه :
 "يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
 خَبِيرٌ" ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " .. وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى
 الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ .. " فإن من المسلمات
 أن هؤلاء العلماء الذين رفع الله قدرهم في الدنيا والآخرة ، هم أرباب العلم
 النافع الذي ينفع البشرية في أمور دينها أو أمور دنياها ، وليس علماء الفتنة
 الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ويشترون به ثمنا قليلا ، حيث يقول الحق
 سبحانه : " مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا
 وَعَصَيْنَا وَاسْمَعَ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالْسِتِّهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ
 قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعَ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
 بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا " ، ويقول سبحانه : " فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ
 لَعْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا
 ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ
 وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ " ، ويقول سبحانه : " يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا
 يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ
 قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ
 يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ
 فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ
 أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ " .

ولا يزال علماء الفتنة من أبناء الجماعات الضالة يحرفون الكلم عن مواضعه ، يجتزئون النصوص تارة ، ويلوون أعناقها أخرى ، يجمد بعضهم عند ظواهر النصوص دون فهم لمقاصدها ، ويحمّلها بعضهم ما لا تحتمل من التفسير والتأويل ، ويخرج بها بعضهم عن سياقها جملة وتفصيلاً .

وهنا يأتي دور علماء الأمة ومصايح الهداية والرشاد ، لبيان صحيح الدين ، وكشف زيغ وزيف المبطلين والمتاجرين بالدين ، ومن يشترون بآيات الله ثمنا قليلا ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُدُوهُ ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ ، وَأَنْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ" .

والذي لا شك فيه أن المعركة الفكرية أو معركة الوعي لا تقل خطورة أو ضراوة عن سائر الأسلحة الفتاكة والمدمرة ؛ لأن الهزيمة المعنوية للشعوب من داخلها أقل كلفة للأعداء، وأشدّ خطراً على الأمة ، تمزق أوصالها ، وتفترق جمعها - من بث الشائعات والأكاذيب والافتراءات تارة، وإثارة الفتن بين أبنائها أخرى ، والتحرّيب على العنف واستباحة الدماء والأعراض والأموال ثالثة - مما يجعل من مواجهة تلك الأفكار الضالة والجماعات العميلة والمنحرفة واجب الوقت دينياً ووطنياً وإنسانياً ، حتى نجليّ عن صفحة ديننا النقية ما ران عليها من تراكم غبار وأفكار تلك الجماعات الضالة ، وننقذ أوطاننا وأمتنا والبشرية من خطر الإرهابيين والمتاجرين بالدين .

ويدور الكتاب حول محورين أساسيين :

الأول : العلماء " دعاة البناء " ، والثاني : الهدامون " جماعات الضلال " .

آملا أن ألقى بذلك الضوء على واحدة من أهم القضايا العصرية في البناء الفكري ، من خلال بيان دور العلماء في بناء الوعي وعمارة الكون وصناعة الحضارة ، ودور دعاة الهدم في إثارة الفتن ، وهدم الأوطان ، وغرس الإحن والعداوات ، وتدمير الحضارات ، وسفك دماء الأبرياء ، وبثّ الفرقة والشتات بين بني البشر .

والله من وراء القصد ، وهو الموفق والمستعان .

أ.د/ محمد مختار جمعة مبروك
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية
بالأزهر الشريف

الفصل الأول:

العلماء " دعاة البناء "

العلم النافع

يقول الحق سبحانه وتعالى : " قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ " (١) ، ويقول سبحانه : " إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ " (٢) ، ويقول سبحانه : " يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ " (٣) ، ويقول سبحانه : " فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ " (٤) .

ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أجنحتها رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ، وَالْحَيَاتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، وَرَثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ " (٥) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ ، عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحْمَهُ وَيَعْلَمُ اللَّهُ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النَّيَّةِ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فَلَانٍ فَهُوَ

(١) الزمر : ٩ .

(٢) فاطر : ٢٨ .

(٣) المجادلة : ١١ .

(٤) النحل : ٤٣ .

(٥) سنن أبي داود ، كتاب العلم ، باب من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا ، حديث رقم ٣٦٤٣ .

بِنَيْتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ ، وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللهُ مَالاً وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْماً فَهُوَ يَخْطُ فِي مَالِهِ
بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحْمَهُ وَلَا يَعْلَمُ اللهُ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا
بِأَخْبَثِ الْمُنَازِلِ ، وَعَبْدٌ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالاً وَلَا عِلْماً فَهُوَ يَقُولُ لَوْ أَنَّ لِي مَالاً
لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنَيْتِهِ فَوَزُرُهُمَا سَوَاءٌ " (١) ، ويقول (صلى الله
عليه وسلم) : " إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ
أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةً ، قَبِلَتْ الْمَاءَ ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَاءَ ، وَالْعُشْبَ
الْكَثِيرَ ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ ، أَمْسَكَتِ الْمَاءَ ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ ، فَشَرِبُوا
مِنْهَا ، وَسَقَوْا ، وَرَعَوْا ، وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى ، إِنَّمَا هِيَ قَيْعَانٌ ، لَا
تُمْسِكُ مَاءً ، وَلَا تُنْبِتُ كَلَاءً ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللهِ ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي
اللهُ بِهِ ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي
أُرْسِلْتُ بِهِ " (٢) .

فالمراد بالعلم مطلق العلم النافع ، وليس التفقه في العلوم الشرعية
فحسب ، فقد جاءت كلمة "علمًا" نكرة لإفادة العموم والشمول .
والمراد بالعلم النافع كل ما يحمل نفعًا للناس في شئون دينهم ، وشئون
دنياهم ، في العلوم الشرعية أو العربية ، أو علم الطب ، أو الصيدلة ، أو
الفيزياء ، أو الكيمياء ، أو الفلك ، أو الهندسة ، أو الميكانيكا أو الطاقة ،

(١) سنن الترمذي ، كتاب الزهد ، باب مَا جَاءَ مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ ، حديث رقم ٢٤٩٥ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، باب بَيَانِ مَثَلِ مَا بُعِثَ بِهِ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ ،

حديث رقم ٦٠٩٣ .

وسائر العلوم والمعارف ، وأرى أن قوله تعالى : " قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ " (١) ، وقوله تعالى : { فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } (٢) أعم من أن نحصر أيًّا منهما أو نقتصره على علم الشريعة وحده ، فالأمر متسع لكل علم نافع ، والمراد بأهل الذكر أهل الاختصاص ، كلُّ في مجاله وميدانه .

وقد قالوا التعلّم قبل التعبّد ، ليكون التعلّم على هدى ، وقال الحسن البصري (رحمه الله) : العامل على غير علم كالسالك على غير طريق ، والعامل على غير علم يفسد أكثر ممّا يصلح ، فاطلبوا العلم طلبًا لا تضرّوا بالعبادة ، واطلبوا العبادة طلبًا لا تضرّوا بالعلم ، فإنّ قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتّى خرجوا بأسيا فهم على أمة محمّد (صلّى الله عليه وسلّم) ، ولو طلبوا العلم لم يدهّم على ما فعلوا (٣) .

فالعلم النافع هو الذي يكون سبيل هدى ورحمة ورشد لصاحبه في أمر دينه ودنياه ، ولذا رأينا سيدنا موسى (عليه السلام) يقول للعبد الصالح : " هَلْ أَتَبِعَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا " (٤) ، وقد قدم النص القرآني صفة الرحمة على صفة العلم حيث يقول الحق سبحانه : " فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ

(١) الزمر: ٩ .

(٢) النحل: ٤٣ .

(٣) جامع بيان العلم وفضله ، لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي

(المتوفى : ٤٦٣ هـ) ، تحقيق : أبي الأشبال الزهيري ، ط : دار ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية ،

الطبعة : الأولى ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م ، فصل في الإنصاف في العلم ، حديث رقم ٩٠٥ .

(٤) الكهف: ٦٦ .

عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا"^(١) ، فالعلم ما لم يكن
رحمة لصاحبه وللناس أجمعين فلا خير فيه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى: "فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ
لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ"^(٢)،
فإذا كان المطلوب هو أن ينفر نفرٌ أو جماعة من كل فرقة ليتفقهوا في علوم
الدين، ويبينوا لقومهم حكمه وأحكامه، مبشرين لهم ومنذرين لعلمهم
يُحذرون ويتقون ، فإن على الباقيين من أهل هذه الفرقة أن ينفروا أيضًا فيما
ينفع البلاد والعباد ، فتتفر جماعة لطلب الطب ، وأخرى لطلب الهندسة ،
وثالثة للعمل بالزراعة ، ورابعة للعمل في الصناعة ، وخامسة للاشتغال
بالتجارة ، وهكذا في سائر الفنون والحرف والصناعات ، يقول الإمام
القرطبي (رحمه الله) : **وَفِي هَذَا إِجَابُ التَّفَقُّهِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَأَنَّهُ عَلَى
الْكَفَايَةِ دُونَ الْأَعْيَانِ**^(٣) .

ومما لا شك فيه أننا في حاجة إلى جميع العلوم التي نعمر بها ديانا ونحقق
بها اكتفاءنا الذاتي في جميع جوانب حياتنا ، ونؤدي من خلالها رسالتنا في
عمارة الكون وبناء الحضارات ، كما أننا في حاجة إلى العلوم التي يستقيم بها
أمر ديننا ، ونخلصه بها من أباطيل وضلالات الجماعات الضالة والمنحرفة .

(١) الكهف : ٦٥ .

(٢) التوبة : ١٢٢ .

(٣) تفسير القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي
المتوفى ٦٧١هـ ، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش ، ط : دار الكتب المصرية ، القاهرة . الطبعة:
الثانية ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م ، ج ٨ / ص ٢٩٤ .

العلم المطلق والعلم النسبي

العلم المطلق لله وحده ، فهو وحده علام الغيوب ، حيث يقول سبحانه: "عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا"^(١) ، ويقول سبحانه : "وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ"^(٢) ، ويقول سبحانه : "إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"^(٣) ، وإذا كان هناك من يقول إن الأطباء الآن يستطيعون معرفة نوع الجنين قبل مولده ، نقول هذا نوع من العلم النسبي ، فالطبيب قد يعرف شيئاً يسيراً عن الجنين كحجمه أو نوعه ونحو ذلك ، لكنه لا يعرف كل شيء عن الجنين ، حتى وإن تقدم الطب وعرف أشياء أكثر ، فإن علم الأطباء يظل نسبياً محصوراً إلى جانب علم الله (عز وجل) الشامل الذي يعرف كل ما في الأرحام ، وكل شأن من شئونها ، يقول سبحانه: " وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ " ، ثم علينا أن نكمل الآية " وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

(١) الجن: ٢٦، ٢٧.

(٢) الأنعام: ٥٩.

(٣) لقمان: ٣٤.

خَيْرٌ" (١)، فمن ذا الذي يمكن أن يعرف متى وأين يموت؟ ، فعلم الله مطلق ، وعلم الخلق نسبي .

على أن الله (عز وجل) قد منَّ على بعض خلقه بشيء من العلم اللدني ، حيث يقول سبحانه في شأن الخضر (عليه السلام): " فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا " (٢)، ويقول سبحانه في شأن سيدنا سليمان (عليه السلام) : " فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا " (٣)، ويقول سبحانه : " يَا يُحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا " (٤) ، على أن ذلك كله يظل في إطار قوله تعالى : " وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا " (٥) ، وقوله تعالى : " وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ " (٦) ، وقوله تعالى على لسان الملائكة : " سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ " (٧) .

أما العلم النسبي الكسبي فيأتي بالتعلم والتقوى ، حيث يقول سبحانه :
" وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " (٨) ، ويقول نبينا (صلى الله

(١) لقمان : ٣٤ .

(٢) الكهف : ٦٥ .

(٣) الأنبياء : ٧٩ .

(٤) مريم : ١٢ .

(٥) الإسراء : ٨٥ .

(٦) يوسف : ٧٦ .

(٧) البقرة : ٣٢ .

(٨) البقرة : ٢٨٢ .

عليه وسلم) : " من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله معط"^(١) ، وقد قالوا : أعط العلم كلاً يعطك العلم بعضاً ، فإن أعطيت العلم بعضاً لم يعطك العلم شيئاً ، فالعلم بالتعلم ، والفقه بالتفقه ، ولا بد لهما من صبر واحتمال ، يقول الشاعر :

ومن لم يذق مرَّ التعلم ساعةً

تجرَّع ذلَّ الجهل طولَ حياته^(٢)

وقد حثنا ديننا الحنيف على طلب العلم وأعلى من شأنه وشأن العلماء ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) " مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ، وَالْحَيَاتَانِ فِي جَوْفِ الْمَاءِ ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، وَرَثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ"^(٣) .

* * *

(١) متفق عليه : صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، حديث رقم ٧١ .

وصحيح مسلم ، كتاب الزكاة ، باب النهي عن المسألة ، حديث رقم ١٠٣٧ .

(٢) ديوان الشافعي ص ٢٩ .

(٣) سبق تحريجه ص ٨ .

العلم الكسبي والعلم الكشفي

المراد بالعلم الكسبي هو الذي يتأتى بالجهد والاجتهاد والتحصيل ، فعن ابن عمر (رضي الله عنهما) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : " وَحُسْنُ السُّؤَالِ نِصْفُ الْعِلْمِ " (١).

ويروى عن ابن عباس (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا) أنه سئل : بِمَ نِلْتَ هَذَا الْعِلْمَ ؟ قَالَ : بِلِسَانٍ سَتُّوْلٍ وَقَلْبٍ عُقُوْلٍ (٢) ، ويقول (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) أَيضًا : " ذَلَّتْ طَالِبًا فَعَزَزَتْ مَطْلُوبًا " (٣) ، ويقول الإمام الشافعي (رحمه الله) (٤) :

أخي لن تنال العلم إلا بسة

سأنبئك عن تفصيلها بيان

ذكاءً وحرصاً ، واجتهاداً ، وبلغاً

وصحبة أستاذ وطول زمان

والنوع الثاني هو العلم الفيضي أو الكشفي أو اللدني ، حيث يقول سبحانه : " وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ

(١) المعجم الأوسط للطبراني ، ج ٧ / ص ٢٥ حديث رقم ٦٧٤٤ .

(٢) فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني ، ط : مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ،

١٤٠٣ - ١٩٨٣ ، تحقيق : د. وصي الله محمد عباس ، ج ٢ / ص ٩٧٠ ، حديث رقم ١٩٠٣ .

(٣) جامع بيان العلم وفضله لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي

(المتوفى : ٤٦٣ هـ) ، تحقيق : أبي الأشبال الزهيري ، ط : دار ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية . الطبعة :

الأولى ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م ، باب جامع في آداب العالم والمتعلم ، ج ١ / ص ٥٠٧ ، حديث رقم ٨١١ .

(٤) ديوان الشافعي ، ص ٢٥ .

إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ" (١)، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولم تزل هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله" (٢) .

ولما جاء وفد بني تميم إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) قالوا : يا محمد جئنا لنفاخرك فأخرج لنا خطيبك وشاعرك ، فلما تحدث خطيب رسول الله بزّ خطيبهم وتحدث شاعرهم ، فأجابه سيدنا حسان بن ثابت فأحسن وأبلغ وأفحم شاعرهم ، فقال القوم : والله إن هذا الرجل لمؤتى له "أي لموفق بمدد رباني" ، لخطيبه أبلغ من خطيبنا وشاعره أشعر من شاعرنا (٣) .

على أننا نفرق بين العلم الفيضي أو الكشفي الذي يمن الله تعالى به على عباده المتقين الصالحين الذين يعملون بما يتعلمون ، وبين أذعياء الصلاح والتقوى والولاية ، فالعلم الذي لا يبني على معرفة أصول الشريعة وفروعها ، وعلى الفهم الثاقب المستنير لدين الله (عز وجل) فهو علم الدخلاء والأذعياء الذي لا يعتد به ولو طار صاحبه في الهواء أو مشي على الماء .

ومن العلم الكشفي ما قصه علينا القرآن الكريم في سورة الكهف ، في قصة موسى والخضر (عليهما السلام) ، وما شهده سيدنا موسى (عليه

(١) الأنعام : ٨٣ .

(٢) سبق تخريجه ص ١٥ .

(٣) دلائل النبوة للبيهقي ، جامع أبواب غزوة تبوك ، باب وفد عطار بن حاجب في بني تميم ، حديث رقم

. ٢٠٥٩

السلام) من خرق الخضر للسفينة ، وقتله للغلام ، وبنائه للجدار ، حيث رأى وشهد ما لا يحتمل العقل وجهه الظاهر ، فاستنكر على الخضر ما قام به ، فأخذ الخضر يبين له حكمة ما قام به ، وأنه لم يقم بما قام به من عند نفسه ، حيث يقول الحق سبحانه على لسانه (عليه السلام) : "أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَضْبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا"^(١).

ولا شك أن ما ذكره الخضر لموسى (عليه السلام) ليس مما يتعلم من بطون الكتب إنما هو من العلم الفيضي أو الكشفي أو اللدني الذي يمن الله (عز وجل) به على من يشاء من عباده الصالحين غير الأعداء أو الدجالين ، فالعالم الحقيقي غير دعي ، والدعي غير ولي .

* * *

(١) الكهف : ٧٩-٨٢ .

رسالة العلماء

رسالة العلماء عظيمة عظم الأمانة التي يحملونها ، وهي أمانة العلم ، وأمانة الدعوة ، وأمانة التبليغ ، والعمل على نفع البشرية من خلال مناهج الإصلاح من جهة ، والتقدم العلمي الذي ينفع الناس جميعاً من جهة أخرى، أما من حيث الأمانة في التبليغ فيقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "نَصَرَ اللهُ امرءًا سَمِعَ مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها فُربَّ حاملٍ فقهٍ إلى من هو أفقه منه ، ثلاثٌ لا يغلُّ عليهنَّ قلبُ مسلمٍ : إخلاصُ العملِ لله ، ومناصحةُ أئمةِ المسلمين ، ولزومُ جماعتهم فإنَّ الدعوةَ تحيطُ من ورائهم"^(١)، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : "بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار"^(٢).

وأما من حيث إخلاص النية لله (عز وجل) في أداء الرسالة فيقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "من تعلَّم علمًا مما يبتغى به وجهَ الله تعالى ، لا يتعلَّمه إلا ليُصيبَ به عرضًا من الدنيا لم يجدْ عَرَفَ الجنةَ يومَ القيامةِ يعني ريجها"^(٣) ، ويقولون : من تعلم العلم ثم عمل بما تعلمه ثم علم الناس فذلك يدعى عظيمًا في الملكوت والسموات .

(١) سنن ابن ماجه ، المقدمة ، باب مَنْ بَلَغَ عِلْمًا ، حديث رقم ٢٣٥ . وأخرجه أبو داود في سننه مقتصرًا على شطره الأول " نَصَرَ اللهُ امرءًا سَمِعَ مَنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ فُربَّ حَامِلٍ فُقِهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ وَرُبَّ حَامِلٍ فُقِهٍ لَيْسَ بِفَقِيهِ " كتاب العلم ، باب فضل نشر العلم ، حديث رقم ٣٦٦٢ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب مَا ذُكِرَ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، حديث رقم ٣٤٦١ .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب العلم ، باب فِي طَلَبِ الْعِلْمِ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، حديث رقم ٣٦٦٦ .

كما أن رسالة العلماء الحقيقيين تتضمن العمل على تحقيق سبل التقدم لدولهم ولخير الإنسانية .

وإذا كان العلماء ورثة الأنبياء فعليهم أن يدركوا طبيعة المهمة التي اصطفاهم الله (عز وجل) لها ، وأنها ليست مهمة تكسب بالعلم أو بالدعوة، حيث يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) : " قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" (١) ، ويقول سبحانه على لسانه (صلى الله عليه وسلم) : " قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا" (٢) ، ويقول سبحانه : " يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ" (٣) ، ويقول سبحانه : " يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ" (٤) ، ويقول سبحانه : " قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمُوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ" (٥) ، ويقول سبحانه على لسان سيدنا نوح (عليه السلام) : " وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ" (٦) ، ويقول سبحانه

(١) سبأ : ٤٧ .

(٢) الفرقان : ٧٥ .

(٣) هود : ٢٩ .

(٤) هود : ٥١ .

(٥) الشورى : ٢٣ .

(٦) الشعراء : ١٠٩ .

على لسان سيدنا هود (عليه السلام): " وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ"^(١)، ويقول سبحانه على لسان سيدنا صالح (عليه السلام): " وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ"^(٢)، ويقول سبحانه على لسان سيدنا لوط (عليه السلام): " وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ"^(٣)، ويقول سبحانه على لسان سيدنا شعيب (عليه السلام): " وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ"^(٤)، بصيغة واحدة تؤكد وحدة الهدف والمنهج، وصدق النية مع الله (عز وجل)، وتمام الإخلاص له سبحانه لدى رسل الله أجمعين. إضافة إلى أن العالم الحقيقي لا يُمَنِّي الناس ولا يعدهم بشيء من عرض الحياة الدنيا إنما يعدهم رحمة من الله وفضلا، حيث يقول الحق سبحانه: " الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"^(٥)، ويقول على لسان سيدنا نوح (عليه السلام): " وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ"^(٦)، فالرسالات الساوية رسالات سامية لا يمكن لأهلها أن

(١) الشعراء: ١٢٧.

(٢) الشعراء: ١٤٥.

(٣) الشعراء: ١٦٤.

(٤) الشعراء: ١٨٠.

(٥) البقرة: ٢٦٨.

(٦) هود: ٣١.

يكونوا تجار دنيا ، أو متاجرين بدين الله (عز وجل) على نحو ما يفعل
المتاجرون بالدين والمتكسبون به أفراداً أو جماعات مارقة .

* * *

تواضع العلماء

التواضع خلق حميد ، والكبر خلق ذميم ، حتى سئل بعضهم عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة ، فقال : الكبر ، ورأى سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) رجلاً يمشي مختالاً في مشيته ، فقال : إن للشياطين إخواناً وكررها مرتين أو ثلاثاً" (١) ، ويقول الحق سبحانه : "وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا" (٢) ، وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : "مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا ، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ" (٣) ، وَعَنْ حَارِثَةَ بِنِ وَهْبِ الْخَزَاعِيِّ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : "أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتْلٍ جَوَاطِ مُسْتَكْبِرٍ" (٤) ، وقد حذر النبي (صلى الله عليه وسلم) من الكبر فقال : " لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ

(١) تفسير ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي ٧٧٤ هـ ، المحقق : سامي بن محمد سلامة ، ط: دار طيبة للنشر والتوزيع . الطبعة : الثانية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م . ج ٥ / ص ٧٦ .

(٢) الإسراء : ٣٧ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب اسْتِحْبَابِ الْعَفْوِ وَالتَّوَاضُّعِ ، حديث رقم ٦٧٥٧ .

(٤) متفق عليه : صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب عتل بعد ذلك زعيم ، حديث رقم ٤٦٣٤ . وكتاب الأدب ، باب الكبر ، وقال مجاهد : {ثَانِي عِظْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} (الحج ٩) مستكبرا في نفسه عطفه رقبته ، حديث رقم ٥٧٢٣ . وصحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ، حديث رقم ٢٨٥٣ .

كِبْرٍ، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ
جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ " (١).

والتواضع صفة من الصفات المحمودة ، وسبيل إلى نيل رضا الله (عز
وجل) ، وقد مدح الله تعالى عباده المتواضعين فقال سبحانه: "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ
الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا" (٢) ،
وقال (صلى الله عليه وسلم): "إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا؛ حَتَّى لَا يَفْخَرَ
أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ" (٣) ، وكان سيدنا أبو بكر الصديق
(رضي الله عنه) يقول : وجدنا الكرم في التقوى ، والغنى في اليقين ،
والشرف في التواضع . وكانت السيدة عائشة (رضي الله عنها) تقول:
تغفلون عن أفضل العبادة : التواضع (٤) ، وسئل الفضيل بن عياض عن
التواضع فقال : أن تخضع للحق وتنقاد له ، ولو سمعته من صبي قبلته منه،
ولو سمعته من أجهل الناس قبلته منه (٥) ، وقال عبد الله بن مسعود (رضي
الله عنه) : مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ تَخَشُّعًا رَفَعَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ تَطَاوَلَ تَعَظُّمًا
وَضَعَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (٦) ، وكان عروة بن الورد يقول: التواضع أحد
مصايد الشرف، وكل نعمة محسود عليها صاحبها إلا التواضع .

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه ، حديث رقم ٩١ .

(٢) الفرقان : ٦٣ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب الصفات التي يُعْرَفُ بِهَا فِي الدُّنْيَا أَهْلُ الْجَنَّةِ
وَأَهْلُ النَّارِ ، حديث رقم ٢٨٦٥ .

(٤) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي ، باب ما يُكْرَهُ لِأَهْلِ الْعِلْمِ وَعَرِيهِمْ مِنَ التَّكَبُّرِ وَالتَّجَبُّرِ ، حديث رقم
٥٤٠ .

(٥) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ترجمة "الفضيل بن عياض" ٩١ / ٨ .

(٦) الزهد للإمام أحمد بن حنبل ١ / ١٢٩ ، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان .

وإذا كان التواضع محمودًا من جميع الخلق فإنه من أهل العلم والشرف
والجاه أحمد وأعظم ، على أن أهل العلم يدركون أن العلم نعمة ومنة وفضل
من الله سبحانه ، حيث يقول سبحانه : "يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ
الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ" (١) .

والعالم للسائل والمستفتي كالطبيب للمريض لا بد أن يحنو عليه ، وأن يأخذ بيده
إلى سبيل الرشاد ، وهذا الإمام الشافعي يضرب لنا الأنموذج في الحكمة والتواضع،
فيقول : رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأيي غيري خطأ يحتمل الصواب (٢)، ويقول (٣):

أَحَبُّ الصَّالِحِينَ وَلَسْتُ مِنْهُمْ
لَعَلِّي أَنْ أُنَالَ بِهِمْ شَفَاعَةَ
وَأَكْرَهُ مَنْ تَجَارَتْهُ الْمَعَاصِي
وَلَوْ كُنَّا سِوَاءَ فِي الْبِضَاعَةِ

* * *

(١) البقرة : ٢٦٩ .

(٢) وثبت عن الشافعي قوله : " إذا خالف قولي قول الرسول فاضربوا بقولي عرض الحائط وخذوا بقول
رسول الله (صلى الله عليه وسلم)" . البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ / ص ٢٧٦ ط . دار الحديث .

(٣) نسبهم الحافظ المناوي للإمام الشافعي (فيض القدير شرح الجامع الصغير لعبد الرؤف المناوي ، ط : المكتبة
التجارية الكبرى ، ج ٣ / ص ٣٤٨ هـ) ، وقال أبو نعيم صاحب الحلية : حَدَّثَنَا أَبُو الْحُسَيْنِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ
عُبَيْدِ اللَّهِ ، ثنا الْعَبَّاسُ بْنُ يُونُسَ الشُّكْرِيُّ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا أُمَيَّةَ الْأَسْوَدَ ، يَقُولُ : سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الْمُبَارَكِ ..
فَنَسِبَهُ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، المتوفى :
٤٣٠ هـ ، ط : دار الكتاب العربي ، بيروت ، ج ٨ / ص ١٧٠) .

وجوه العلماء ليست كالحة

إذا كان الأنبياء جميعًا قد بعثوا رحمة للعالمين ، وكانت رسالة الأديان كلها رسالة المسامحة والتسامح في أسمى معانيهما ، وكان العلماء ورثة الأنبياء ، فلا يمكن أن تكون رسالة العلماء هي العسر أو المشقة على الناس ، ولا يمكن أن تكون وجوههم كالحة أبدًا ، وهذا مضرب المثل سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : يأتيه شاب يستأذنه في الزنا !! فصاح به الناس ، لكنه (صلى الله عليه وسلم) قربه منه وقال له في منتهى اللطف والرفق : "أُحِبُّهُ لِأُمَّكَ؟" قَالَ : لا ، قَالَ : " وَكَذَلِكَ النَّاسُ لَا يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ ، أُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟" قَالَ : لا ، قَالَ : " وَكَذَلِكَ النَّاسُ لَا يُحِبُّونَهُ لِابْنَاتِهِمْ ، أُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟....." ، ثم وَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِ هَذَا الشَّابِّ ، وَقَالَ : " اللَّهُمَّ كَفِّرْ ذَنْبَهُ ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ" (١) .

وقام أعرابي فبال في المسجد ، فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : مَهْ مَهْ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لَا تُزْرِمُوهُ دَعْوَهُ ، فَتَرَكَوهُ حَتَّى بَالَ ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَأْخُذُهُ وَيَعْلَمُهُ آدَابَ الْمَسْجِدِ فِي رَفْقٍ وَلِينٍ وَرَحْمَةٍ وَحَنُو ، فَيَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي دَاعِيًا : اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا ، فَلَمَّا سَلَّمَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ لِلْأَعْرَابِيِّ : لَقَدْ حَجَّرْتَ وَاسِعًا" (٢) ، أي ضيقت واسعًا .

(١) مسند أحمد، ج ٣٦ / ص ٥٤٥ ، حديث رقم ٢٢٢١١ .

(٢) صحيح البخارى ، كتاب الأدب ، باب رَحْمَةِ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ ، حديث رقم ٦٠١٠ .

ويأتيه (صلى الله عليه وسلم) أحد الناس فقال : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلَكْتُ ، قَالَ : مَا لَكَ ؟ قَالَ : وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي وَأَنَا صَائِمٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : " هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ؟ قَالَ : لَا ، فَقَالَ : فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : فَمَكَثَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ أُتِيَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بِعَرَقٍ فِيهَا تَمْرٌ ، وَالْعَرَقُ الْمِكْتَلُ (وهو الزنبيل الكبير) قَالَ : أَيْنَ السَّائِلُ ؟ فَقَالَ : أَنَا ، قَالَ : خُذْهَا فَتَصَدَّقْ بِهِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : أَعَلَى أَفْقَرٍ مِنِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ ، فَوَ اللَّهُ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا يُرِيدُ الْحَرَّتَيْنِ أَهْلُ بَيْتِ أَفْقَرٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ ثُمَّ قَالَ : أَطْعِمْنَاهُ أَهْلَكَ " (١).

وعن معاوية بن الحكم السلمي (رضي الله عنه) : بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ ، فَقُلْتُ : يَرْحَمُكَ اللَّهُ ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ ، فَقُلْتُ : وَائْكَلُ أُمِّيَاهُ ؛ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ ؟! فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْحَادِهِمْ ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي ، لَكِنِّي سَكَتُ ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَبَابِي هُوَ وَأُمِّي ؛ مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ ؛ فَوَاللَّهِ : مَا كَهَرَنِي ، وَلَا ضَرَبَنِي ، وَلَا شَتَمَنِي ، قَالَ : إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ .. " (٢).

(١) صحيح البخارى ، كتاب الجمعة ، باب إِذَا جَامَعَ فِي رَمَضَانَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْءٌ فَتُصَدَّقَ عَلَيْهِ فَلْيَكْفُرْ ، حديث رقم ١٩٣٦ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب المساجد ، باب تَحْرِيمِ الْكَلَامِ فِي الصَّلَاةِ وَنَسْخِ مَا كَانَ مِنْ إِبَاحَتِهِ ، حديث ١٢٢٧ .

وَعَنْ أَنَسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمُّهُ عَلَيَّ ، قَالَ : وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ ، فَصَلَّى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي أَصَبْتُ حَدًّا ، فَأَقِمْ فِيَّ كِتَابَ اللَّهِ ، قَالَ : " هَلْ حَضَرْتَ الصَّلَاةَ مَعَنَا؟ " قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : " قَدْ غُفِرَ لَكَ " (١) ، وفي رواية قال : " فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ حَدَّكَ ، أَوْ قَالَ : ذَنْبَكَ " (٢) .

ألا نتعلم هذه الرحمة وهذه السماحة من نبي الرحمة ، نبي السماحة الذي بعثه ربه (عز وجل) رحمة للعالمين ، فقال : " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ " (٣) .
وقد قالوا : المؤمن سهل هين لين يألف ويؤلف ، والكافر فظ غليظ لا يألف ولا يؤلف ، فالغلظة والقسوة صفات أهل النار .

والعالم الرباني ، الصوفي الحق ، الزاهد الحق ، المتعلق به ، لا يمكن أن يكون كالح الوجه ، عابس الطلعة ، مكفهر المنظر ، بل هو كما قال الحق سبحانه في وصف أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم) وأتباعه إلى يوم القيامة : " سَيِّئَاتُهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ " (٤) .

فالعين الباكية من خشية الله والقلب الخاشع لله ، وسيلتا رحمة لصاحبهما في الدنيا والآخرة ، والقلوب النيرة لا تعرف الحقد ، ولا الغلظة ،

(١) صحيح مسلم ، كتاب التوبة ، بَابُ قَوْلِهِ تَعَالَى : { إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ } [هود: ١١٤] ، حديث رقم ٤٤ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الموضوع ، حديث رقم ٤٦ .

(٣) الأنبياء: ١٠٧ .

(٤) الفتح: ٢٩ .

ولا الجفوة ، ولا العناد ، ولا الانتقام ، ولا التشفي ، إنما تعرف الرفق واللين
والرحمة والإنسانية .

أما أولئك الذين طَمَسَ قلوبهم انتمأؤهم إلى الجماعات الإرهابية الضالة
المضلة وتنظيماتها المحلية والدولية وأغرتهم بالمال أو الجاه أو الطمع في
السلطة تحت خداع التمكين وانساقوا مأجورين لجماعات الخراب ، يوهمون
أنفسهم أنهم مجاهدون وأنهم صامدون إفكًا وزورًا ، حتى شاب بعضهم
على هذا البهتان وظنه أو توهمه مسلكًا لكثرة ألفته إليه وبنائه عليه والتفافه
حوله وارتباط مصالحه به ، فصاروا يكفرون غيرهم من العلماء أو
يفسقونهم أو يرمونهم بالزيغ والضلال بلا بينة ولا دليل ولا برهان ، يزكون
أنفسهم بغير حق متناسين قول الله تعالى : " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ
بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا " ^(١) ، فالوجوه الكالحة العابسة
تُنْفَرُ من الإسلام ولا تدعو إليه ، أما الوجوه السمحة الباسمة فهي مناط
الأمل في الدعوة الحكيمة الراشدة .

* * *

(١) النساء : ٤٩ .

الخطاب العلمي والخطاب العاطفي

يقوم الخطاب أي خطاب على أسس منها الفكرة والمضمون ، واللفظ والأسلوب ، والعاطفة ، والخيال ، ويحدد مدى ارتكازه على هذا العنصر أو ذاك كونه علمياً خالصاً يخاطب العقل والمنطق أو كونه إبداعياً خالصاً يعتمد إلى هز العواطف والأحاسيس وإثارة الوجدان ، أو كونه علمياً أدبياً يعتمد إلى عرض القواعد والأصول العلمية في لغة أدبية راقية ، وهذه الطريقة من الأداء تحتاج إلى تمكن من العلم والأدب واللغة معاً وإلى دربة وخبرة ورياضة وتمرس ، وقد يكون علمياً خالصاً يعتمد على المنطق وسرد الحقائق بعيداً عن الخيال اللغوي .

على أن نوع الأسلوب إنما يتحدد وفق طبيعة الموضوع والمادة العلمية ، وقد يتحدد تبعاً لهدف ونية ورغبة وتوجه المتحدث ، فإن كان يهدف إلى تصحيح المفاهيم مال إلى المنطق والإقناع والأسلوب العلمي وسوق الدليل ، وتسلك إلى ذلك باللغة السهلة الشيقة الراقية المؤثرة المعبرة الجياشة المتدفقة .

أما إذا كان المتحدث يهدف أول ما يهدف إلى لفت الأنظار واسترضاء السامعين وكان كلُّ أو جُلُّ ما يعنيه هو رضا المستمعين ، عمد إلى مجرد دغدغة العواطف وإثارة الوجدان ولو على حساب الفكرة والمضمون .

ولا يمكن أن يكون جل هم العالم أو المصلح أو الخطيب هو تحقيق ما يطلبه المستمعون عاطفياً لا عقلياً ، فالعالم والمصلح والخطيب كل منهم

كالطبيب الحاذق يعطي المريض ما يصلحه لا ما يشتهيهِ أو مجرد ما يقبله أو يطلبه .

فقد يكون المريض في حاجة إلى العلاج بالجراحة ولا يريدُها لكن نجاته محصورة في إجرائها ، فلا يمكن لطبيب ماهر حاذق أن يترك مريضاً للهلاك لأنه لا يريد الجراحة التي لا بديل عنها ، وقد يخبر المريض الطبيب بأنه لا يريد العلاج إلا في شكل شراب أو أقراص لأنه يرتعد من وخذ الإبر في حين يرى الطبيب أن حالته لا يسعها سوى هذا اللون من ألوان العلاج ، أو أن يطلب الطبيب منظاراً فيقول المريض أنا لا أطيقه ولا أقبله ، وهو أمر لا بد منه لإتمام العلاج الصحيح من وجهة نظره ، فلو سلم الطبيب للمريض بما يريجه لا ما يصلحه لأضر به وضيّعه ، وهكذا حال العالم والمصلح والخطيب يعطي الناس ما يصلحهم فإن تمكن من ذلك بلغة شيقة رشيقة راقية مؤثرة وهز فيهم مع ذلك العواطف والمشاعر الراقية فقد جمع بين الحسنين وبلغ درجة البيان الذي يهجم عليك الحسن منه دفعة واحدة فلا تدري أجاك الحسن من جهة لفظه أم من جهة معناه .

والمتحدث الحاذق هو من يمتلك القدرة البيانية التي تؤهله للوصول إلى مراده من أقصر الطرق وأعذبها وأرشقها ، ومن يمتلك ناصية القول شكلاً ومضموناً ، معنى ومبنى ، وبهذا تميز الفصحاء والبلغاء على غيرهم ، وقيل لأحدهم أديب وللآخر حكيم أو فيلسوف .

على أن أهم ما يميز العالم أو المصلح أو الخطيب هو إخلاص النية لله (عز وجل) وحسن القصد في القول والعمل ، فما خرج من القلب يستقر في

القلب ، وما خرج من محض اللسان لا يتجاوز الأذان ، وما من إنسان قصد بعمله وجه الله فخاب أو ضاع .

وإذا كان الإخلاص مطلوباً في كل شيء فإنه في عمل العلماء والخطباء أوثق وألزم يقول الحق سبحانه : " فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا " (١) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ " (٢) ، وفي الحديث القدسي يقول رب العزة (عز وجل) : " أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكَتُهُ وَشْرَكَهُ " (٣) .

وعن أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ (رضي الله عنه) قَالَ : " جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلًا غَزَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ، مَا لَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (لَا شَيْءَ لَهُ) فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): " لَا شَيْءَ لَهُ "، ثُمَّ قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا ، وَابْتِغَى بِهِ وَجْهَهُ " (٤) .

(١) الكهف : ١١٠ .

(٢) متفق عليه : صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) حديث رقم ١ ، وصحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، باب قَوْلِهِ (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ " ، حديث رقم ٥٠٣٦ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الزهد والرفائق ، باب مَنْ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِ غَيْرَ اللَّهِ ، حديث رقم ٧٦٦٦ .

(٤) سنن النسائي ، كتاب الجهاد ، باب مَنْ غَزَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ ، حديث رقم ٣١٥٣ .

العلماء والحكّاون

إطلاق كلمة عالم على شخص لم يستوف مقومات العلم ولم يمتلك أدواته شيء خطير ، ربما يصل إلى حد الجناية على العلم أو في حقه ، العالم عالم ، والفقيه فقيه ، والمؤرخ مؤرخ ، والواعظ واعظ ، والنسابة نسابة ، وقد ظهر على مدار تاريخنا الطويل طوائف من الوعاظ ، والوعاظ البكائين، ومن القصاص ، والحكّائين ، والمنشدين ، والقراء ، وقد ميز عصورهم أن ظل العالم عالماً ، والفقيه فقيهاً ، والواعظ واعظاً ، والقارئ قارئاً ، والكاتب كاتباً ، والمنشد منشداً ، لم يتقمص أحد منهم شخصية غيره ولم يحاول أن يغتصب دوره ، وعرف الناس قدر هذا وذاك ، وطلب كل منهم من يجب ، فمن أراد العلم لزم مجالس العلماء ، ومن استهواه الوعظ صار خلف الوعاظ ، ومن أطربه الإنشاد ارتاد حلقات المنشدين .

غير أن مقام الإفتاء ظل بعيد المنال مرفوع الراية ، له أهله ورجاله ، حتى ظهرت جماعات التطرف والإرهاب فادعى أدياؤها كل شيء ، بل حاولوا احتكار كل شيء ، يعملون على تشويه كل الرموز عدا رموز عصابتهم ، ويعملون على استقطاب ضعاف النفوس من جهة ، ويجندون عناصرهم من أشباه أو أشباح طلاب العلم من جهة أخرى ، محاولين تسويقهم على أنهم العلماء الربانيون أو الدعاة الجدد ، ولا أدري ما مفهوم الربانية عندهم؟ ومن الذي أفردهم أو اختصهم بهذا الوصف؟، كما لا أدري ما يعنون بوصفهم الدعاة الجدد ، أيعنون شكل ونوع الثياب واللباس

والمظهر أم يعنون الخروج عن العربية إلى العامية ، أم يعنون شيئاً آخر لا نعلمه ولا نعرفه من أسرار هذا الوصف ، وكأنه لغز .

غير أن الذي ينبغي أن ننبه إليه أمور ، من أهمها : ضرورة احترام الضوابط الشرعية والقانونية ، فلا يفتتت أحد على حق الدولة في تنظيم شؤونها ومنها الشأن الديني وما يتصل به من ضوابط إقامة الجمع والدروس والندوات وما ينظمه القانون في ذلك منضبطاً بضوابط الشرع ، ومنها ضرورة أن يكون المتحدث في الشأن الديني متخصصاً وحاصلاً على الدراسات الشرعية المتخصصة التي تؤهله للحدث في الشأن الديني ، وفي ضوء ما ينظمه القانون أيضاً ، ومنها ألا يكون المتحدث في الشأن الديني منتزِعاً أو محسوباً أو متعاطفاً مع أي من الجماعات المتطرفة أو المتشددة أو المتاجرة بدين الله (عز وجل) ، ومنها أن يكون المتحدث في الشأن الديني ملماً بواقع العصر زماناً ومكاناً ، وملماً بأحوال الناس وواقع حياتهم وتحديات العصر ومستجداته ، مدركاً أن الفتوى قد تتغير بتغير الزمان والمكان والأحوال ، قادراً على التفرقة بين الثابت المقدس والمتغير غير المقدس ، ملماً بفقهِ المقاصد ، وفقهِ المآل ، وفقهِ الأولويات ، وفقهِ الموازنات وطرائق الاستنباط والقياس ، وغير ذلك مما ينبغي للمتحدث في الشأن الديني الإمام به ، ثم عليه قبل ذلك كله إخلاص النية لله (عز وجل) ، وعدم اتخاذ العلم وسيلة للمتاجرة بدين الله (عز وجل) وعدم توظيفه لصالح جماعة أو أية مصالح نفعية ، مع عدم إدراك الجميع للفروق الدقيقة بين مهمة الواعظ ومهمة العالم ومجالات الحكائين والبكائين .

بين العلم والثقافة

العلاقة بين العلم والثقافة هي علاقة عموم وخصوص مطلق ، فكل علم ثقافة ، وليست كل ثقافة علمًا ، أما العلاقة بين العالم والمثقف فهي علاقة عموم وخصوص وجهي ، يلتقيان في العالم المثقف ، وينفرد العالم بمن تخصص في علم وانقطع له ولم يأخذ نفسه بالقدر الثقافي الكافي ، وينفرد المثقف بمن أخذ من كل فن بطرف ولم يتخصص أو يتبحر في علم من العلوم ، ومع أننا في حاجة إلى العالم وإلى المثقف معًا ؛ فإن النمط الأمثل الذي به تتقدم الأمم وترتقي الشعوب إنما هو نمط العالم المثقف الذي يتخصص ويتبحر في علم ما ، يسبر أغواره ، ويجمع أطرافه ، ويغوص في أعماقه ، ويأخذ مع ذلك من كل فن بطرف ، ويكون على درجة من الوعي والإدراك بقضايا وطنه ، وتحديات عصره ، وظروف عالمه ، ملتمًا من كل فن طرف ، آخذًا منه بنصيب ، وقد كتبت يومًا ما في أستاذنا الأديب الكبير والشاعر الأريب الأستاذ الدكتور/ إبراهيم علي أبو الخشب ، الذي لم يأخذ حظه من الشهرة والمجد مع ما كان عليه من واسع الأدب والمعرفة والثقافة.

مَنْ لِلْبِلاغَةِ وَالْأَدَبِ

إِلَّا الْأَدِيبَ أَبُو الْخَشْبِ

فِي كُلِّ فَنٍ عِنْدَنَا

مفض بهم أو سبب^(١)

وهو الذي أخذنا منذ أن كنا طلابًا بالمرحلة الجامعية إلى عالم الثقافة وفضائها الرحب ، فكان يصول ويجول بنا هنا وهناك شعراً ونشراً وحكمة وملحاً وتاريخاً وطُرفاً ، ويُخلِّق في كل ذلك عاليًا بلا آفاق أو حدود ، مع حفاظه علي زيه الأزهري الذي لم يفارقه حتي لقي ربه ، وخلف ديوان شعرٍ رائعٍ لم يطبع بعد ، لكن أحد الباحثين تناوله أديبًا في رسالة ماجستير بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر التي أشرف بالانتماء إليها والانتساب لها ، وكان لي شرف مناقشة هذه الرسالة عن هذا الأديب الكبير. والعلماء المثقفون وإن كانوا عملة نادرة فهم أمل الأمم وصمام أمانها الفكري، وقائدو نهضتها الفكرية والثقافية، على أن هذا الأمر لا يأتي صدفة وإن كان هناك فلتات ونوابغ في كل أمة وفي كل عصر وفي كل مجتمع، فإذا أردنا أن نُخرج جيلًا يجمع بين العلم والثقافة فلا بد أن نقدر للأمر قدره ونعد له عدته ، ونبني مناهجنا الدراسية والعلمية عليه ، ونخلِّص أبناءنا من العزلة الفكرية، ونخرج من دائرة الحفظ والتلقين والتقليد الأعمى إلى دوائر الفهم والتفكير والإبداع والابتكار في كل المجالات ، وأن يكون بناء الشخصية السوية الواعية المثقفة المبدعة هدفًا رئيسًا في كل مجالاتنا التعليمية والتربوية ، وفي خطابنا الديني والثقافي والإعلامي ، وأن تكون لدينا مقاييس لسلوك طلابنا لا تقل عن مقاييس تحصيلهم للعلوم والمعارف ، وأن يكون

(١) من شعر المؤلف .

للمكون الثقافي مكانه المعترف في العملية التعليمية ، وألا ننظر إلى الأنشطة المجتمعية والأنشطة اللاصفية في العملية التعليمية على أنها مضيعة للوقت أو أنها من نافلة القول ، بل يجب أن ننظر إليها على أنها من صلب العملية التعليمية ، وأن نعطيها وزناً نسبياً وحوافز مشجعة .

على أن دور المثقف الحقيقي في تشخيص الداء والعمل على تخليص المجتمع منه أشبه بدور الطبيب والجراح الماهر الذي يحدد مكان الداء أو الورم ويستأصله بدقة وحنكة بالغة ، ونحن أحوج ما نكون إلى مشرط العالم المثقف في معالجة كثير من قضايانا العلمية والفكرية والثقافية ، فحاجتنا إلى المثقف الماهر لا تقل عن حاجتنا إلى الطبيب الماهر ، فهذا يصحح الأبدان وذاك يصحح الأفهام .

مع تأكيدنا على أن العلاقة بين العلم والثقافة علاقة تكاملية ، وعلينا أن نعمل جادين على كسر التقابل الخاطيء في أذهان بعض الناس بين الدين والثقافة ، فالأمر على العكس من هذا التقابل الخاطيء ، إذ ينبغي أن يكون العالم أو الفقيه أو الخطيب على قدر كبير من الثقافة المتنوعة ، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، مع ضرورة مراعاة مقتضى الحال والمقام الذي يعد ركناً أصيلاً من أركان البلاغة والبيان ، مما يتطلب أن يكون العالم شديد الاتصال بمحيطه ومجتمعه وبما يموج به العالم من أحداث وتحديات ، ملماً بواقعه غير منعزل ولا منفصل عنه .

وقد عانينا لفترات طويلة من ضيق الأفق الثقافي أو محدوديته لدى كثيرين ، وربما انسداده أو انغلاقه في بعض الأحيان ، وقد صارت أحادية البعد الثقافي ظاهرة تستحق المناقشة ، حيث يركز الباحث أو الدارس على علم أو فن بعينه يستغرقه فكرياً أو أكاديمياً ، ينحصر فيه دون سواه ، مما يخرج لنا جيلاً ربما نجد فيه عالماً غير مثقف ، أو غير قادر على العمل بروح الفريق أو التواصل المرن مع أطراف مجتمعه ، لعدم إلمامه بأدوات العصر واتجاهاته الثقافية والمعرفية ، وربما ينحرف بالمتحدث أو الكاتب إلى معالجة خاطئة لبعض القضايا ، أو ينحرف به إلى الصدام مع المتلقي مشاهدًا كان أو سامعًا أو قارئًا ، مما يتطلب منا بذل مزيد من الجهود في إحداث عملية التوازن المعرفي بين العلم والثقافة.

* * *

الفقه والفهم

يقال : فقه الرجل بفتح القاف إذا فهم ، وفقه بكسر القاف إذا سبق غيره في الفهم ، وفقه بالضم إذا صار الفقه له لازمة وملكة وسجية .
يقول الحق سبحانه : " كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ " (١) ،
وقال تعالى على لسان يوسف (عليه السلام) : " لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بَتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ " (٢) ، وقال رجل للقاضي شريح :
علمني القضاء ، فقال له شريح : القضاء فقه ، القضاء لا يُعلم (٣) .

ولا يظن من حفظ بعض المسائل من بعض الكتب أنه قد صار حجة أو فقيهاً أو مرجعاً يرجع إليه وينزل على قوله أو رأيه ، فالأمر أبعد وأعمق ، إذ لو كان الأمر واقفاً عند حدود معرفة بعض الأحكام الجزئية بمعزل عن أصولها وسياقها وزمانها ومكانها وقواعدها الكلية والأصولية لكان الخطب هيناً والأمر جد يسير ، غير أن الأمر أبعد من ذلك وأدق ، فعندما دخل الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) المسجد ووجد رجلاً يتصدر مجلس

(١) يوسف : ٧٦ .

(٢) يوسف : ٣٧ .

(٣) تهذيب الكمال في أسماء الرجال للحافظ جمال الدين المزي المتوفي سنة ٧٤٢هـ ، تحقيق : دكتور بشار عواد

معروف ، ط : مؤسسة الرسالة ، ج ٣ / ص ٤٣٥ .

العلم سألته عن الناسخ والمنسوخ فلم يدر جواباً ، فقال عليّ (رضي الله عنه): هذا ليس بعالم ، هذا رجل يقول : أنا فلان بن فلان فاعرفوني^(١) .

فثمة إلى جانب معرفة القواعد الأصولية ، وقواعد الفقه الكلية ، وعلم الحديث رواية ودراية ، وعلوم القرآن وما يتفرع عنها ويدور حولها من دراسات قرآنية وأسرار بيانية وبلاغية ، هناك فقه الواقع ، وفقه الأولويات ، وفقه المقاصد ، وفقه النوازل ، وفقه المتاح ، وفقه الموازنات ، مما لا غنى عنه للمفتي فضلاً عن المجتهد ، غير أننا ابتلينا في زماننا هذا برويبضات لا هم في العير ولا في النفير يريدون أن يتصدروا مجالس العلم عنوة ، وأن يعتلوا المنابر اقتتالاً ، وأن يكونوا في الصدارة زوراً وبهتاناً ، يبحث بعضهم عن كل شاذ أو غريب ، لا يعنيه أول ما يعنيه إلا أن يجاري السفهاء ، أو يجادل العلماء ، أو يباري الأمراء ، أو يصرف إليه قلوب العامة والدهماء ، أو يسوق نفسه لدى الباحثين عن طالبي الشهرة وحب الظهور لإحداث لون من الإثارة أو الجدل ، لعله يحظى لديهم بمغرم أي مغرم ، ولو كان على حساب دينه أو وطنه أو كرامته أو مروءته لا يلوي على شيء ، على عكس ما نراه في أخلاقيات العلماء الفاهمين لدينهم المعتزين بعلمهم وفقههم ، على نحو ما يصوره العالم الأديب الأريب القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني

(١) الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى:

٣٣٨هـ) ، المحقق : د / محمد عبد السلام محمد ، ط : مكتبة الفلاح ، الكويت ، الطبعة : الأولى ١٤٠٨ .

الأديب ، حيث يقول (١):

يقولون لي فيك انقباضٌ وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجماً
أرى الناس من دانا هم هان عندهم ومن أكرمه عزة النفس أكرماً
ولم أقضِ حقَّ العلمِ إن كان كُلمًا بدا طمعٌ صيرتُه لي سلماً
وما زلتُ مُنحازاً بعرضي جانباً من الذلِّ أعتدُّ الصيانةَ مغنماً
إذا قيلَ هذا منهلٌ قلتُ قد أرى ولكنَّ نفسَ الحرِّ تحتملُ الظماً
أنزَّها عن بعضٍ ما لا يشينُها مخافةُ أقوالِ العدا فيم أو لما
فأصبحُ عن عيبِ اللئيمِ مسلماً وقد رحَّتْ في نفسِ الكريمِ مُعظماً
وإني إذا ما فاتني الأمرُ لم أبت أقلبُ فكري إثره مُتندماً
ولكنه إن جاء عفواً قبلتُه وإن مالَ لم أتبعه هلاً وليتما
وأقبضُ خطوي عن حُطوطٍ كثيرةٍ إذا لم أنلها وافرض العرضِ مُكرماً
وأكرمُ نفسي أن أضاحك عابساً وأن أتلقَى بالمديحِ مُذمماً
وكم طالبٍ رقي بنعماه لم يصل إليه وإن كان الرئيسَ المُعظماً
وكم نعمة كانت على الحرِّ نعمةً وكم مغنمٍ يعتده الحرُّ مغرماً

(١) ترتيب الأملال الخميسية للشجري ، مؤلف الأملال: يحيى المرشد بالله بن الحسين الموفق بن إسماعيل الشجري الجرجاني المتوفى ٤٩٩ هـ ، كان من أئمة الزيدية في بلاد الديلم ، رتبها : القاضي محيي الدين محمد بن أحمد القرشي العبشمي ، المتوفى: ٦١٠ هـ ، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل ، ط : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م ، باب في الإيمان وكلمة التوحيد وصفة المؤمن وحرمة وما يتصل بذلك ، رواية رقم ٢٢٣ .

ولم أبتذل في خدمة العلم مُهَجَّتِي لأُحْدَمَ من لا قيتُ لكن لأُحْدَمَا
أشقى به غرسًا وأجنيه ذلَّةً إذن فاتباعُ الجهلِ قد كان أحزَمَا
ولو أن أهل العلمِ صانوه صائهم ولو عَظَّمُوهُ في النفوسِ لَعُظَّمَا
ولكن أهانوه فهانوا ودنَّسُوا مُحْيَاهِ بالأطماعِ حتى نَجَّهَمَا
فإن قُلْتَ جَدُّ العلمِ كابٍ فإنما كبا حين لم يحرس حماه وأسلمَا
وما كلُّ برقٍ لاح لي يستفزني ولا كلُّ من في الأرضِ أرضاه مُنعمَا
ولكن إذا ما اضطرني الضُّرُّ لم أبتِ أفلبُ فكري مُنجدًا ثم مُتَّهَمَا
إلى أن أرى ما لا أعصُّ بذكره إذا قلتُ قد أسدى إليَّ وأنعمَا

مع التأكيد على أن ليس للإنسان إلا ما كتب ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ ، فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ ، وَمَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ ، جَمَعَ اللهُ لَهُ أَمْرَهُ ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ " (١) ، ويقول الحق سبحانه : " فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا " (٢) .

* * *

(١) سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب الهم بالدنيا ، حديث رقم ٤١٠٥ .

(٢) الكهف : ١١٠ .

القراءة المقاصدية

هناك من يقفون عند ظواهر النصوص لا يتجاوزون الظاهر الحرفي منها إلى فهم مقاصدها ومراميها ، فيقعون في العنت والمشقة على أنفسهم ، وعلى من يحاولون حملهم على هذا الفهم المتحجر ، دون أن يقفوا على فقه مقاصد السنة ، بما تحمله من وجوه يسر وعظمة ديننا الحنيف ، والذي لو أحسنا فهمه وعرضه على الناس لغيرنا تلك الصورة السلبية التي سببتها أو سوقتها الأفهام والتفسيرات الخاطئة للجماعات الإرهابية والمتطرفة والمتشددة ، ورؤى أصحاب الأفهام السقيمة الجامدة المتحجرة على حد سواء.

ورحم الله الحسن البصري حين قال : " .. فَإِنَّ قَوْمًا طَلَبُوا الْعِبَادَةَ وَتَرَكَوْا الْعِلْمَ حَتَّى خَرَجُوا بِأَسْيَافِهِمْ عَلَى أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَلَوْ طَلَبُوا الْعِلْمَ لَمْ يَدُهُمْ عَلَى مَا فَعَلُوا"^(١) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : "يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَثَاءُ الْأَسْنَانِ سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ لَا يُجَاوِزُ إِيْمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ فَأَيُّنَا لَقِيْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِيَنْ قَتَلْتَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"^(٢).

وإذا أردنا أن نأخذ بعض الأمثلة اليسيرة للفهم المقاصدي ، فلنأخذ مثالا لذلك قوله (صلى الله عليه وسلم) : " إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ

(١) سبق تخريجه ، ص ١٠ .

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري ، كتاب المناقب ، باب عَلامَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الْإِسْلَامِ ، حديث رقم ٣٦١١ .

وصحيح مسلم ، كتاب الزكاة ، باب التَّحْرِيزِ عَلَى قَتْلِ الْخَوَارِجِ ، حديث رقم ٢٥١١ .

فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يَقُولُ :
بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي ، وَبِكَ أَرْفَعُهُ ، إِنَّ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا ، وَإِنْ
أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ " (١) ، والمراد بـ (دَاخِلَةِ
الإِزَارِ) : طَرَفُهُ ، فَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَنْفُضَ الْإِنْسَانُ فِرَاشَهُ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ
فِيهِ بِطَرَفِ ثَوْبِهِ لِئَلَّا يَحْصُلَ فِي يَدِهِ مَكْرُوهٌ ، فلو وقفنا عند ظاهر النص فماذا
يصنع من يلبس ثوبًا يصعب الأخذ بطرفه وإمالة الأذى عن مكان النوم به
كأن يرتدي لباسًا عصريًا لا يمكنه من ذلك .

ولو أخذنا بالمقصد الأسمي وهو تنظيف مكان النوم والتأكد من خلوه
مما يمكن أن يسبب للإنسان أي أذى من حشرة أو نحوها ، لتأكدنا أن
الإنسان يمكن أن يفعل ذلك بأي آلة تحقق المقصد وتفي بالغرض ، فالعبرة
ليست بإمساك طرف الثوب ، وإنما بما يتحقق به نظافة المكان والتأكد من
خلوه مما يمكن أن يسبب الأذى ، بل إن ذلك قد يتحقق بمنفضة أو نحوها
أكثر مما يتحقق بطرف الثوب ، لكن النبي (صلى الله عليه وسلم) خاطب
قومه بما هو من عاداتهم وبما هو متيسر في أيامهم حتى لا يشق عليهم في
ضوء حياتهم البسيطة .

فمن شابهت حياته حياتهم فلا حرج عليه إن أخذ بظاهر النص ، غير
أن محاولة حمل الناس جميعًا مع كل ألوان تطور الحياة العصرية على

(١) متفق عليه: صحيح البخاري ، كتاب الدعوات ، باب التعوذ والقراءة عند النوم ، حديث رقم ٥٩٦١ .
وكتاب التوحيد ، باب السؤال بأساء الله تعالى والاستعاذة بها ، حديث رقم ٦٩٥٨ ، وصحيح مسلم ، كتاب
الذكر والدعاء والتوبة ، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ، حديث رقم ٢٧١٤ .

الأخذ بظاهر النص ظلم كبير في فهم مقصده .

ومن أمثلة الفهم المقاصدي كذلك ما يتصل باستخدام السواك الذي تحدث عنه الفقهاء فقالوا في حكمته : مطهرة للفم ، ومرضاة للرب ، وإصابة للسنة ، حيث يقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : " لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي أَوْ عَلَى النَّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ " (١) ، وفي رواية : " لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَاكِ مَعَ كُلِّ وَضُوءٍ " (٢) ، والقصد من السواك طهارة الفم والحفاظ على رائحته الطيبة ، وإزالة أي آثار لأي رائحة كريهة مع حماية الأسنان وتقوية اللثة ، وهذا المقصد كما يتحقق بعود السواك المأخوذ من شجر الأراك يتحقق بكل ما يحقق هذه الغاية ، فلا حرج من فعل ذلك بعود الأراك أو غيره كالمعجون وفرشاة الأسنان ، أما أن نتمسك بظاهر النص ونحصر الأمر حصراً ونقصه قصرًا على عود السواك، ونجعل من هذا العود علامة للتقى والصلاح بوضع عود أو عودين أو ثلاثة منه في الجيب الأصغر الأعلى للثوب مع تعرضه للغبار والأتربة والتأثيرات الجوية ونظن أننا بذلك فقط دون سواه إنما نصيب عين السنة ، ومن يقوم بغير ذلك غير مستنٍ بها ، فهذا عين الجمود والتحجر لمن يجمد عند ظاهر النص دون فهم أبعاده ومقاصده ، لذا فنحن في حاجة إلى قراءة مقاصدية

(١) متفق عليه : صحيح البخاري ، كتاب الجمعة ، بَابُ السَّوَاكِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، حديث رقم ٨٨٧ ، وصحيح

مسلم ، كتاب الطهارة ، باب السواك ، حديث رقم ٢٤٧ .

(٢) مسند أحمد ، ج ١٦ / ص ٢٥٥ ، حديث رقم ٧٧٢٤ .

عصرية للسنة النبوية ، تتواكب مع روح العصر ومستجداته ، وتقرب
السنة النبوية العظيمة إلى الناس بدلاً من الأفهام السقيمة التي تنفر الناس
من السنة ولا تقربهم منها.

* * *

حديث معاذ عمدة الاجتهاد

عندما بعث النبي (صلى الله عليه وسلم) سيدنا معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: " كَيْفَ تَقْضِي إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ؟ " ، قَالَ : أَقْضِي بِكِتَابِ اللَّهِ . قَالَ : " فَإِنْ لَمْ تَجِدْهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ " ، قَالَ : أَقْضِي بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) ، قَالَ : " فَإِنْ لَمْ تَجِدْهُ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ؟ " ، قَالَ : أَجْتَهِدُ رَأْيِي لِأَلُو ، قَالَ : فَضْرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِي ، وَقَالَ : " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللَّهِ " ^(١) ، والمراد بقوله : " لا آلو " أي لا أقصر في الاجتهاد والنظر في المسألة.

فلا شك أن هذا الحديث النبوي الشريف يعد عمدة في فتح باب الاجتهاد وإعمال العقل إلى يوم القيامة ، حيث بدأ سيدنا معاذ بن جبل (رضي الله عنه) بالنظر في كتاب الله فإن وجد في المسألة مناط الفتوى حكماً من كتاب الله تعالى ينطبق عليها واقعاً حكماً فيها بما ورد في كتاب الله سواء أكان حكماً قطعي الثبوت والدلالة أم كان حكماً قطعي الثبوت ظني الدلالة ، أي مما يحتاج إلى إعمال العقل في استخلاص الحكم ، مع تحقق المناط وانطباق النص على الواقع ، فإن لم يجد في المسألة نصاً قرآنياً لا قطعي الدلالة ولا ظنيها انتقل إلى سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سواء أكان الانتقال لتفسير النص القرآني أو بيان مجمله أو تقييد مطلقه أو تخصيص عمومه ، أم كان حديثاً منشئاً لحكم تفصيلي

(١) سنن أبي داود ، كتاب الأفضية ، باب اجتهاد الرأي في القضاء ، حديث ٣٥٩٤ ، وسنن الترمذي ، كتاب

الأحكام ، باب ما جاء في القاضي كيف يقضي ، حديث رقم ١٣٧٧ .

في ضوء المقاصد العامة للتشريع المتضمنة في كتاب الله ، فإن لم يجد حديثاً قاطعاً بالحكم في المسألة أو لم يجد فيها حديثاً أصلاً ، عمد إلى إعمال العقل وقياس الأشباه والنظائر ، واجتهد رأيه دون تقصير .
ولنا في ذلك وقفات .

الأولى : أن سيدنا معاذ بن جبل (رضي الله عنه) كان قد بعثه النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى اليمن في حياته (صلى الله عليه وسلم) ، ولم يقل له سيدنا معاذ إذا لم أجد حكماً في المسألة في كتاب الله تعالى ، ولا في سنة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنتظر أو أتوقف حتى أرجع إليك أو سأرسل إليك رسولاً ، ولم يطلب النبي (صلى الله عليه وسلم) منه ذلك ، بل أطلق له حرية الاجتهاد في حياته (صلى الله عليه وسلم) ، ولم يطلب منه حتى مراجعته وعرض ما يقضي به عليه ، بل ترك له مساحة واسعة للاجتهاد والنظر ، قائلاً له :
"الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسوله الله " .

الثانية : أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : "إِنَّ اللَّهَ (عز وجل) يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُهَا دِينَهَا" (1) ، وطبيعي أن هذا التجديد لا يكون إلا بالاجتهاد والنظر ومراعاة ظروف العصر ومستجداته ، وقراءة الواقع قراءة جديدة في ضوء المقاصد العامة للتشريع .

الثالثة : أن الله (عز وجل) لم يخص بالاجتهاد ، ولا بالفقه ولا بالعلم ولا بالحكم ولا بالبلاغة ولا بالبيان قومًا دون قوم ، أو رجالا دون رجال ، أو

(1) سنن أبي داود ، كتاب الملاحم ، باب مَا يُدَكَّرُ فِي قَرْنِ الْمِائَةِ ، حديث ٤٢٩٣ .

زماناً دون زمان ، إنما جعل الخير في أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، إلى يوم القيامة ، وفتح باب الاجتهاد والنظر أمامهم إلى يوم الدين .

الوقفه الرابعة : لقد صار الصحابة (رضوان الله عليهم) على نهج النبي (صلى الله عليه وسلم) من بعده ، فهذا سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يبعث برسائله التاريخية في القضاء إلى سيدنا أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) ، وكان مما ورد فيها ، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى أبي موسى الأشعري : **أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ ، أَفْهَمُ إِذَا أُذِيَ إِلَيْكَ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ كَلِمَةٌ حَقٌّ لَا نَفَاذَ لَهُ ، آسَ بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَجَلْسِكَ وَعَدْلِكَ حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ وَلَا يَخَافُ ضَعِيفٌ مِنْ جَوْرِكَ .**

الفهم الفهم عندما يتلجلج في صدرك مما لم يبلغك في كتاب الله ولا في سنة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، اعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور عند ذلك ثم اعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى (١) .

ولم يطلب عمر (رضي الله عنه) من أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) التوقف حتى يرجع إليه ، كما أنه لم يطلب منه حتى جمع الناس على المسألة ، وإن كان ذلك مما هو مستحب ومندوب فيما يحتاج إلى ذلك ، غير أن ولي الأمر أو المجتهد إنما يفعل ذلك متى احتاج إليه ، مع تأكيدنا على أن رأي الحاكم يقطع الخلاف في المختلف فيه للمصلحة المتبعة في ضوء المقاصد العامة للشرع الحنيف .

* * *

(١) سنن البيهقي ، كتاب آداب القاضي ، باب إِنْصَافِ الْخُصْمَيْنِ فِي الْمُدْخَلِ عَلَيْهِ وَالِاسْتِجَاعِ مِنْهُمَا وَالْإِنْصَافِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَتَّى تَنْفَدَ حُجَّتُهُ وَحُسْنِ الْإِقْبَالِ عَلَيْهَا ، حديث رقم ٢٠٩٦٤ .

الفتوى بين الإتاحة والمنع

ما أغنانا في الأوقات الصعبة عن إثارة الجدل ، وما أحوجنا إلى العمل ، والاجتماع على كلمة سواء لا تألو على شيء سوى وحدة الصف ، في ضوء الحفاظ على ثوابتنا الشرعية التي لا نقبل المساس بها ، بل إن مهمتنا هي الحفاظ عليها ، ونشر صحيح الأديان التي لا غنى للإنسان عنها ، مؤكدين أن الفهم الصحيح الواعي للأديان هو دائماً جزء من الحل ولا يمكن أن يكون أبداً جزءاً من المشكلة ، إنما المشاكل هي في سوء الفهم ، أو التوظيف النفعي للدين ، والخروج به عن وظيفته التي أنزل وشرع لأجلها وهي هداية الناس وخير البشرية ، فحيث تكون المصلحة فثمة شرع الله تعالى .

وفما يتصل بأمر الفتاوى فنحن جميعاً مع ضبط الفتاوى ، وندرك خطورة الفتوى غير المنضبطة وأثرها في إثارة الجدل وما قد يترتب على بعض الفتاوى الشاذة من مخاطر قد تعصف بمجتمعنا ، وما هذه الجماعات الإرهابية إلا نتاج فتاوى شاذة مضللة .

وأؤكد على الآتي :

١- أن أمر الفتوى جليل ، وشأنها خطير ، وأن أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) كان كل واحد منهم يتمنى لو أن غيره كفاه أمرها . وكان سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إذا عرض له أمر عام من شئون الدولة جمع أهل العلم من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليروا فيه رأيهم ، ثم يختار هو من بين هذه الآراء ما يراه محققاً

للصالح العام^(١).

وعليه فإن هناك مسائل تحتاج إلى اجتهاد جماعي مؤسسي لا إلى رؤى فردية ، فإذا ما حسم الأمر ورأى فيه الحاكم رأيه في الاختيار من بين الآراء المتعددة التي يعرضها أهل العلم ، فصارت في عصرنا الحديث قانوناً ، قيل هنا : إن اختيار الحاكم يقطع الخلاف في المختلف فيه ، فتصير عليه الفتوى في هذا القطر ويحاسب من يخرج عليها وإلا لصارت فوضى وفتنة .

٢- إذا كنا نبحث عن الوسطية في كل شيء دون إفراط أو تفريط فإن الوسطية ليست كلاماً ولا ادعاء ، إنما يجب أن نتبناها قولاً وعملاً وتطبيقاً ومنهج حياة ، ففي الوقت الذي أكدنا وما زلنا نؤكد وسنظل نؤكد على منع غير المؤهلين وغير المتخصصين في الخطاب الديني من الخطابة والإفتاء على حد سواء ، احتراماً للتخصص ولطبيعة الخطاب الديني ، فإننا نرى في الوقت نفسه أن التضييق على المتخصصين يعد إقصاء يذهب إلى أقصى الطرف النقيض من المعادلة ، وهو جانب الغلو والإفراط غير المقبول في الاحتياط ، ما لم يصدر عن المتخصص ما يقتضي المنع.

(١) عند البخاري: وَكَانَ الْقُرَاءُ أَصْحَابَ مَشُورَةٍ عُمَرَ كُفُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا ، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، صحيح البخاري ، كتاب الاعتصام ، باب قَوْلِهِ تَعَالَى (وَأْمُرُهُمْ سُورَى بَيْنَهُمْ) ، حديث رقم ٧٣٦٨.

٣- أن نتخذ جميعاً كل الحذر ، ونتعاون أقصى درجات التعاون لمنع تسلل عناصر الجماعات الإرهابية المتطرفة وفي مقدمتها جماعة الإخوان الإرهابية إلى عقول المجتمع عبر تسلل بعض عناصرها إلى وسائل الإعلام ، وإذا كان تسلل بعض عناصر الجماعة إلى وسائل الإعلام على إطلاقه أمراً خطيراً فإن تسلل هذه العناصر إلى بعض برامج الخطاب الديني هو الخطورة نفسها ، لأن بضاعة هذه الجماعات الإرهابية هي المتاجرة بالدين ، ولبس مسوح المتدينين ، ومخادعة المجتمع بتسويق أنفسهم أنهم حماة الدين والفضيلة مستغلين عملية التدين الفطري وحب الناس لدينهم ، فتجد لبعضهم غمراً هنا ولمزاً هناك انتظاراً أو ترقباً وتحيناً لفرصة الانقضاض على الدولة ، لأن هذه الجماعات ربّت عناصرها المجرمة على الكفر بالوطن ، فهي لا تؤمن بوطن ولا بدولة وطنية ، وترى المجتمع جاهلاً جاهلياً ، لتنتقل من التجهيل إلى التكفير إلى التفجير ، وهُمّا منها أن هذا هو الطريق إلى السلطة التي تسعى إليها حتى لو كان ذلك على حساب الدين والوطن أو دماء الخلق ، وهو ما يجب أن نحذر منه ، وأن لا نكون سلبيين تجاه تسرب بعض عناصر الجماعة المتطرفة إلى وسائل الإعلام عبر منصات الإفتاء أو تجديد الخطاب الديني .

* * *

علماء الأمة وعلماء الفتنة

العلم الحقيقي هو الذي به تبنى الدول ، ويجعل من صاحبه قامة بناء لا هدم ، والعالم الحقيقي صمام أمان لدينه ووطنه وأمته ، والعلماء الحقيقيون هم من يكونون منارات هدى ، ومصابيح هداية ، ويقدمون ما ينفع البشرية في أمر دينها ودنياها .

والعالم الحقيقي هو من يستغرقه العلم ، وتحصنه الأخلاق ، فينهيه عن المتاجرة بعلمه ، لذا فالعالم الحقيقي وكذلك المثقف الحقيقي لا يبيع ولا يشتري . ومن ثمة تأتي خطورة العلماء المؤدلجين الذين وقعوا عن طمع أو غفلة في برائن الجماعات المتطرفة ، ذلك أن أكثر من وقعوا في شباك هذه الجماعات رغباً أو انخداعاً لم يستطيعوا الفكاك من قيودها وأغلالها ، فخرسوا أنفسهم وحرثتهم ، وانساقوا في طريق اللاعودة ، واللارجعة ، ولو على حساب دينهم ووطنهم وكرامتهم وإنسانيتهم ، وأخذوا يوظفون أقلامهم وأقوالهم لترويج أفكار الجماعات الضالة التي ينتمون إليها ، فاستباحوا دماء الأبرياء وتخريب الأوطان ، وهدم العامر ، وحرق الأخضر واليابس ، بلا وازع من دين أو وطنية أو ضمير إنساني حي .

علماء الفتنة هم المكفرون ، ومن يفتون بغير علم ، ومن يقولون ما لا يفعلون ، حيث يقول الحق سبحانه : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ }^(١) ، ومن يبيعون دينهم بثمن بخس ، حيث يقول الحق سبحانه : { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ

(١) الصف : ٢ ، ٣ .

الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(١)، ويقول الحق سبحانه: {اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٢)، ومن يفترون على الله ورسوله الكذب ، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى : { وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ^(٣) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ كَذِبًا عَلَى لَيْسَ كَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ ، مَنْ كَذَبَ عَلَى مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ " ^(٤).

والذي لا شك فيه أن أي موجات للتشدد أو العنف أو الإرهاب أو الإسراع في التكفير إنما تنعكس سلبيًا على قضايا الوطن وأمنه واستقراره ومصالحه العليا من جهة ، وعلى علاقاته الدولية من جهة أخرى ، حيث يصبح الخوف من عدوى التشدد هاجسًا كبيرًا لدى الأوطان والدول الآمنة المستقرة ، في وقت صار العالم فيه قرية واحدة ما يحدث في شماله يؤثر في جنوبه، وما يكون في شرقه نجد صداه في غربه، بل إن تأثير الجهات الأربع

(١) البقرة : ١٧٤ .

(٢) التوبة : ٩ .

(٣) النحل : ١١٦ .

(٤) متفق عليه: صحيح البخارى ، كتاب الجنائز ، باب مَا يُكْرَهُ مِنَ النَّبَاحَةِ عَلَى الْمَيِّتِ ، حديث رقم ١٢٩١ .
وصحيح مسلم ، مقدمة الإمام مسلم رحمه الله ، باب تغليظ الكذب على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، حديث رقم ٤ .

يتداخل ويتوازي ويتقاطع بشدة في ظل معطيات التواصل العصري عبر شبكات التواصل المتعددة التي لم يعد بوسع أحد تفادي أصدائها وتأثيراتها. وقد حذر العلماء من خطورة إطلاق التكفير دون دليل قاطع، فقال الإمام الشوكاني (رحمه الله): "إن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دينه ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه إلا برهان أوضح من شمس النهار^(١)، وفي التأكيد على خطورة التكفير والتحذير من إطلاقه بدون حق يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " أَيُّ أَمْرٍ قَالَتْ لِأَخِيهِ يَا كَافِرٌ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ وَإِلَّا رَجَعَتْ عَلَيْهِ"^(٢).

غير أن اقتحام غير المتخصصين لعالم الدعوة ، وتصدر بعضهم بغير حق لمجال الفتوى أدى إلى كثير من الضلال والإضلال والزيغ والانحراف، وصدق نبينا (صلى الله عليه وسلم) إذ يقول: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ أَنْتَرَاعًا يَنْتَرِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ عَالِمًا أَخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا"^(٣).

(١) السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، ط: دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة الأولى، ١٤٠٥. تحقيق: محمود إبراهيم زايد، ج ٤ / ص ٥٧٨.

(٢) صحيح البخارى، كتاب الأدب، باب مَنْ كَفَرَ أَخَاهُ بِغَيْرِ تَأْوِيلٍ فَهُوَ كَمَا قَالَ، حديث رقم ٦١٠٣، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر، حديث رقم ٦٠.

(٣) صحيح البخارى، كتاب العلم، باب كَيْفَ يَقْبِضُ الْعِلْمُ، حديث رقم ١٠٠، وصحيح مسلم، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان، حديث رقم ٢٦٧٣.

أما علماء الأمة فهم سندها ، وهم من يكونون في مقدمة الصفوف دفاعاً عن دينهم ووطنهم ، هم من يفهمون معنى الدولة ، ويعملون على استقرار أمنها الفكري ، بل أمنها العام ، يبينون للناس ما شرع الله لهم بفكر مستنير ، قادر على فهم الواقع وتحدياته ، وفك طلاسمه وشفراته ، ومعالجة قضاياها ومستجداته ، في ضوء الحفاظ على الثوابت والتفرقة بينها وبين المتغيرات ، مدركين أن الفتوى قد تتغير بتغير الزمان أو المكان أو أحوال الأشخاص أو المستفتين ، وأنَّ ما كان راجحاً في عصر وفق ما اقتضته المصلحة في ذلك العصر قد يكون مرجوحاً في عصر آخر إذا تغيرت ظروف هذا العصر وتغير وجه المصلحة فيه، وأن المفتى به في عصر معين ، وفي بيئة معينة ، وفي ظل ظروف معينة ، قد يصبح غيره أولى منه في الإفتاء به إذا تغير العصر، أو تغيرت البيئة ، أو تغيرت الظروف ، ما دام ذلك كله في ضوء الدليل الشرعي المعتبر ، والمقاصد العامة للشريعة ؛ وكان صادراً عن من هو - أو من هم - أهل للاجتهد والنظر.

ومن هنا نؤكد على أهمية ثقافة التفكير في سائر جوانب الحياة الفكرية والسياسية والاقتصادية والإدارية ، والخروج من دائرة القوالب الجاهزة والأنماط الجامدة إلى رؤية تتسم بالفكر وإعمال العقل ، في فهم صحيح النص ومقاصده وغاياته ومراميه ، مع مراعاة واقع عصرنا وظروفه ومستجداته وعادات أهله .

ومن أهم ما يمتاز به علماء الأمة الإخلاص والتجرد والبعد عن الأهواء وتصفية الحسابات ، فإن الوقوع في آفات الهوى والميل وعدم

الإِنصاف طامة كبرى يجب الترفع عنها ، فعن سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ ، قَالَ : تَفَرَّقَ
النَّاسُ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ ، فَقَالَ لَهُ نَاتِلُ أَهْلِ الشَّامِ : أَيُّهَا الشَّيْخُ ، حَدَّثْنَا حَدِيثًا
سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : نَعَمْ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ
(صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ : " إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ
اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : قَاتَلْتُ فِيكَ
حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ ، قَالَ : كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيٌّ فَقَدْ قِيلَ ،
ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ
وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : تَعَلَّمْتُ
الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ ، قَالَ : كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ
لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى
وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ
كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : مَا تَرَكْتُ مِنْ
سَبِيلٍ مُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ ، قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ
لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ (١) .

* * *

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، باب مَنْ قَاتَلَ لِلرِّبَايَةِ وَالسُّمْعَةِ اسْتَحَقَّ النَّارَ ، حديث رقم ٥٠٣٢ .

خطورة الكلمة

الكلمة أحد من السيف ، وأمضى من السهم ، وأنفذ من الرصاص ، وأفتك من السم ، ولهذا كان تحذير نبينا (صلى الله عليه وسلم) من خطورة الكلمة ، حيث يقول (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يُلْقِي لَهَا بِأَلَّا يَرْفَعَهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يُلْقِي لَهَا بِأَلَّا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ " (١) ، ويقول الحق سبحانه وتعالى : " إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ " (٢) .

على أن خطورة الكلمة عن غفلة لا تقل عن خطورة الكلمة عن قصد طالما نزع السهم من القوس ، وقد ذكر النقاد كثيرًا من أغاليط الشعراء وعدم توفيقهم في اختيار ألفاظهم ، ومن ذلك ما كان من الشاعر الأموي ميمون بن قيس المعروف بالأعشى حين استنشده زياد بن أبيه ، فأنشده (٣) :

رَحَلَتْ سُمِيَّةُ غُدُوَّةً أَجْمَاهَا

غَضْبِي عَلَيْكَ فَمَا تَقُولُ بَدَا لَهَا

فاستشاط زياد غضبًا ، ذلك أنه كان يدعى زياد بن سمية قبل أن يصبح أميرًا ، وكان لا يجب أن يتذكر ماضيا أليما وهو ما لم يفتن إليه الشاعر .

(١) صحيح البخارى ، كتاب الرقاق ، باب حِفْظِ اللِّسَانِ ، حديث رقم ٦٤٧٨ .

(٢) النور: ١٥ .

(٣) ديوان الأعشى: ص ٧٧ .

ودخل ذو الرمة على عبد الملك بن مروان فأنشده (١):

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ
كَأَنَّهُ مِنْ كُلِّ مَفْرِيَةٍ سَرِبُ

وكان بعين عبد الملك رمش يطرف ، فندمع عينه ، ولم يفتن الشاعر لذلك ، ولم يقصد ، غير أنه وافق علة في عين الملك فاستشاط عبد الملك عليه غضباً .

ومنه قول أرطاة بن سهية في قصيدة أنشدها عبد الملك بن مروان وكان يكنى بأبي الوليد ، فأنشده الشاعر (٢):

رَأَيْتَ الْمَرْءَ تَأْكُلُهُ اللَّيَالِي
كَأَكَلَ الْأَرْضَ سَاقِطَةَ الْحَدِيدِ
وَمَا تَبْقَى الْمَنِيَّةُ حِينَ تَأْتِي
عَلَى نَفْسِ ابْنِ آدَمَ مِنْ مَزِيدِ
وَاعْلَمْ أَنَّهَا سَتَكْرُ حَتَّى
تُوفِي نَذْرَهَا بِأَبِي الْوَلِيدِ

فعرفت الكراهية في وجه عبد الملك بن مروان ، فقال الشاعر عنيت نفسي وكان يكنى بأبي الوليد أيضا ، فقال عبد الملك بن مروان كلانا للمنية بمرصد .

(١) ديوان ذي الرمة ، ج ٣ / ص ١٩٢٣ .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى : ٢٧٦هـ) ، ط : دار الحديث ، القاهرة . ١ / ٥١٣ .

ومنه قول الشاعر الأموي جرير بن عطية بن الخطي يفخر بقومه وصلته

بسليمان بن عبد الملك ، يقول^(١):

هذا ابن عمي في دِمَشقَ خَلِيفَةَ
لو شئتُ ساقكمُ إليَّ قطينا

فقال سليمان لم يزد ابن المراغة - يعني جريرا - أن جعلني شرطيا
أسوقهم له إذا شاء ، أما لو قال : لو شاء ساقكم إلي قطينا لسقتهم إليه .
ودخل النابغة الذبياني على النعمان بن المنذر يمدحه فقال :

تراك الأرض إما مت خفا
وتحيا إن حيت بها ثقيلًا

فقال له النعمانُ : هذا البيت إن لم تأت بعده بيتي يوضح معناه ، وإلا كان
إلى الهجاء أقرب ، فتعسّر على النابغة النظم ، فقال له النعمان : قد أجلتك
ثلاثًا ، فإن قلت فلك مائة من الإبل النجائب ، وإلا فضربة بالسيف أخذت
منك ما أخذت ، فخرج النابغة وهو ووجل ، فلقي زهير بن أبي سلمى فذكر
له ذلك ، فقال: اخرج بنا إلى البرية ، فتبعهما كعب ، فردّه زهير ، فقال له
النابغةُ : دع ابن أخي يخرج معنا وأردفه ، فلم يحضرهما شيء ، فقال كعب
للنابغة: يا عم ، ما يمنعك أن تقول:

وَدَلِكَ إِنْ فَلَلْتَ الْعِيَّ عَنْهَا

(١) ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب ، المحقق: د. نعمان محمد أمين ط: دار المعارف ، القاهرة ، مصر .
الطبعة: الثالثة ، ج ١ / ص ٣٨٨ .

فَتَمْنَعُ جَانِبَيْهَا أَنْ تَمِيلَا

فأعجب النابغة وقال : قد جعلت لك يا بن أخي ما جعل لي ، وغدا على النعمان فأنشده فأعطاه المائة فوهبها لكعب بن زهير فأبى أن يقبلها^(١) .
هذا كله إذا كانت الكلمة عن غفلة ولا قصد أو تعمد ، فما بالكم لو كانت الكلمة عن كذب وافتراء وبهتان ، إنها بلا شك ستكون وبالاً على صاحبها في الدنيا والآخرة ، إنها الكلمة الخبيثة التي يقول رب العزة (عز وجل) في شأنها : " وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ " ^(٢) .

* * *

(١) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، لأبي عبيد الله بن محمد بن عمران بن موسى المرزباني (المتوفى: ٣٨٤هـ) ، ص: ٤٨ ، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ، ط: دار الجيل ، بيروت . الطبعة الأولى ١٤١٢ . ج ٥ / ص ٥٩٤ .

(٢) إبراهيم : ٢٦ .

من علماء الأمة "علماء صنعوا التاريخ"

يقول المتنبي^(١) :

وإذا كانت النفوس كبارًا
تعبت في مرادها الأجسام

ويقول^(٢) :

على قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ
وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ
وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا
وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ

ويقول أبو فراس الحمداني^(٣) :

وَنَحْنُ أَنَاسٌ ، لَا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا
لَنَا الصِّدْرُ، دُونَ الْعَالَمِينَ، أَوْ الْقَبْرِ

-
- (١) الأمثال السائرة من شعر المتنبي ، لإسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني، المشهور بالصاحب بن عباد (المتوفى: ٣٨٥هـ)، المحقق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، ط: مكتبة النهضة بغداد، الطبعة: الأولى، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م، ص ٣٧. وأبو الطيب المتنبي وما له وما عليه ، لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط: مكتبة الحسين التجارية، القاهرة. ص ١٢٤ .
- (٢) الصبح المنبى عن حثية المتنبي ، ليوسف البديعي الدمشقي (المتوفى: ١٠٧٣هـ)، ط: المطبعة العامرة الشرفية، الطبعة: الأولى، ١٣٠٨ هـ، ج ١ / ص ٥٩ .
- (٣) ديوان أبي فراس الحمداني ، للحارث بن أبي العلاء سعيد بن حمدان بن حمدون أبو فراس الحمداني ، المحقق: خليل الديوبهي، ط: دار الكتاب العربي ، سنة النشر: ١٤١٤ - ١٩٩٤ . ص ١٦٥ .

تَهْوَنُ عَلَيْنَا فِي الْمَعَالِي نُفُوسُنَا

وَمَنْ خَطَبَ الْحَسَنَاءَ لَمْ يَغْلَهَا الْمَهْرُ

ويقول الشافعي^(١): (رحمه الله)

أَبَيْتَ سَهْرَانَ الدَّجِيَّ وَتَبَيْتَهُ

نَوْمًا وَتَبَغِيَّ بَعْدَ ذَلِكَ لِحَاقِي

ويقول (رحمه الله)^(٢):

سَأَضْرِبُ فِي طُولِ الْبِلَادِ وَعَرَضِهَا

أَنْبَالَ مَرَادِي أَوْ أَمُوتَ غَرِيبًا

ويقول أبو القاسم الشابي^(٣):

وَمَنْ لَا يُحِبُّ صُعُودَ الْجِبَالِ

يَعِشُ أَبَدَ الدَّهْرِ بَيْنَ الْحُقَرِ

وبما أن من الصعب حصر كبار علماء الأمة في بحث أو كتاب أو حتى مجلد فإننا سنأخذ بعض النماذج لبعض علماء الأمة الكبار في مختلف المجالات فقد عرف تاريخنا العلمي عددًا من العلماء الذين رحلوا في طلب العلم واجتهدوا في تحصيله حتى تبوؤا مكان الصدارة ، وصاروا أعلامًا في الفنون والعلوم التي تصدروا فيها ، ورأينا مؤلفين عرفوا بمؤلفاتهم في مجال

(١) ديوان الإمام الشافعي ، الجواهر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس ، اعداد وتعليق : محمد إبراهيم

سليم . ط: مكتبة ابن سينا ، ص ٣٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(٣) ديوان أبي القاسم الشابي ورسائله ، المحقق: مجيد طراد ، ط: دار الكتاب العربي . ص ٩٠ .

الفقه وأصوله ، ومؤلفات كتب لها القبول ، على شاكلة كتابي : الرسالة
والأم للإمام الشافعي المتوفى ٢٠٤هـ-٨٢٠م اللذين يفرضان نفسيهما في
مجال الفقه وأصوله ، وعلى شاكلة فتح الباري لابن حجر الذي يفرض
نفسه على شروح البخاري حتى قيل لا هجرة بعد الفتح ، ونرى كتابي
الإتقان في علوم القرآن للسيوطي المتوفى ٩١١هـ - ١٥٠٥م ، ومناهل
العرفان للزرقاني المتوفى ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م يفرضان نفسيهما في مجال علوم
القرآن ، ناهيك عن موافقات الشاطبي المتوفى ٧٩٠هـ - ١٣٨٨م ، وتاريخ
ابن خلدون المتوفى ٨٠٨هـ - ١٤٠٦م ومقدمته ، وتاريخ كل من : الطبري
المتوفى ٣١٠هـ - ٩٢٣م ، وابن الأثير المتوفى ٦٣٠هـ - ١٢٣٣م ، وابن
عساكر المتوفى ١١٧٦م ، وتاريخ بغداد ، وسير أعلام النبلاء للذهبي المتوفى
٧٤٨هـ - ١٣٤٨م ، وحلية الأولياء لأبي نعيم المتوفى ٢١٩هـ ، وغير ذلك
من المصادر والكتب التي صارت ملء السمع والبصر ولا يمكن تجاوز أي
منها في بابه وفنه .

وفي المجالات العلمية عرف تاريخنا العلمي علماء عظماء من أمثال :
جابر بن حيان المتوفى ١٩٧هـ - ٨١٣م ، وابن النفيس المتوفى ٦٨٧هـ -
١٢٨٨م ، وابن سينا المتوفى ٤٢٧هـ - ١٠٣٧م ، وابن الهيثم المتوفى
٤٣٠هـ - ١٠٤٠م ، وأبو بكر الرازي المتوفى ٣١١هـ - ٩٢٣م ، وابن
البيطار المتوفى ٦٤٦هـ - ١٢٤٨م وغيرهم .

وفي المجالات الفلسفية والفكرية عرف تاريخنا علماء ومفكرين كبارًا
أمثال : الفارابي المتوفى ٣٣٩هـ - ٩٥٠م ، والكندي المتوفى ٢٥٦هـ - ٨٧٣م ،

وابن رشد المتوفى ٥٩٥ هـ - ١١٩٨ م ، وابن حزم المتوفى ٤٥٦ هـ -
١٠٦٤ م ، وأبو حامد الغزالي المتوفى ٥٠٥ هـ - ١١١١ م ، وفخر الدين
الرازي المتوفى ٦٠٦ هـ - ١٢١٠ م وغيرهم .

ثم فترت الهمم بعض الشيء إلا ما رحم ربي ، فضعفت قوة الدأب ، وصار
الناس إلى العجلة في معظم الأمور ، وغابت الدقة والأناة ، والترث
والصبر على عملية البحث والدرس والتنقيب ، وصار أكثر الناس إلى
مجالات التحقيق والشروح والحواشي التي لا تقارن بما أبدعه وأنتجه العلماء
الكبار في مجال التأليف على الرغم من صعوبات النشر آنذاك ، حتى صار
أكثر المحدثين عالة على المتقدمين ، وخفت روح الإبداع والابتكار في كثير
من المجالات المتصلة بالتراث أو حتى بالمعاصرة ، فكان ما كان من نصيب
أمتنا في مجالي التعليم والبحث العلمي ، ولم نعد أبداً في رفاهية من الوقت ،
بل صارت عملية البحث والإبداع والابتكار واجب الوقت ، لعلنا نلحق
بالركب أو ندرك بعض ما فاتنا من طريق المسير على أقل تقدير، إن لم يكن
لدينا طموح الإبداع والسبق ، فهل نعود إلى زمن الكبار ، ويكون شعارنا
فيه :

نَبِّنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا
تَبِّنِي وَنَفْعَلْ مِثْلَهَا فَعَلُّوا^(١)

(١) هذا البيت عزاه الزمخشري لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (ربيع الأبرار ونصوص
الأخبار، لجماعة الزمخشري توفي ٥٨٣ هـ، ط: مؤسسة الأعلمي، بيروت . الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ)،
وعزاه أبو علي القيرواني للمتوكل الليثي ، وهو المتوكل بن عبد الله بن نهشل أحد بني ليث بن بكر شاعر
من شعراء الإسلام ، كان في عهد معاوية وابنه يزيد ومدحهما ، وقد اجتمع مع الأخطل وناشده عند
قيصة بن والق فقدمه الأخطل وشهد له . العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لأبي علي الحسن بن رشيق ==

وعلى حد قول الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)^(١) :

ليس الفتى من يقول كان أبي

ولكن الفتى من قال ها أنا ذا

وقد قالوا : إن تقصير الولد الخامل عن رتبة الوالد النابه ذم له ، إنما

يتمدح بالبناء على ما كان والإضافة إليه ، وليس الاتكال عليه ، وهذا

عامر بن الطفيل يقول^(٢) :

إني وإن كنتُ ابنَ سيِّدِ عامِرٍ

وفارسها المندوبَ في كلِّ موكِبٍ

فما سودتني عامر عن وراثته

أبى الله أن أسمو بأُم ولا أب

* * *

= القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط: دار الجيل . الطبعة:

الخامسة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ .

(١) ديوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه وأرضاه) ، جمع وترتيب عبد العزيز الكرم ، ص

٢١٠ .

(٢) البيتين لعامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري ، وهو ابن عم لبيد الشاعر وكان فارس

قيس ، وكان أعور عقيباً لا يولد له ، ولم يعقب (ديوان عامر بن الطفيل ، رواية أبي بكر محمد بن القاسم

الأبباري ، ط: دار صادر ، بيروت ، ص ١٣) .

الفصل الثاني:

"الهدامون" جماعات الضلال "

المؤدلجون (علماء الفتنة)

تعمل الجماعات المتطرفة على فرض أيديولوجيتها العقدية أو الفكرية أو المذهبية على المجتمع ، ولا يمكن أن يتأتى لها ذلك إلا من خلال محاولة استقطاب نخبة من العلماء والمفكرين والمثقفين ، وبخاصة المشهورون أو النابغون ، ليكونوا في مقدمة أدواتها لنشر أفكارها المضللة ، والعمل على استقطاب وضم العديد من العناصر الجديدة إليها ، وتضع ذلك في مقدمة أولوياتها ، إذ تقدر كل جماعة من هذه الجماعات أن قوتها تُقاس بعدد عناصرها ، وقدرتها على الحشد والاستقطاب والتجنيد ، ومستويات الولاء، فكلما كان الولاء لقياداتها أعمى رأت ذلك مصدر قوة لها ، ولا سيما تلك الجماعات التكفيرية التي تجند الإرهابيين للقيام بالعمليات الانتحارية والتفجيرية ، فإنها تريد مسخًا بلا عقل ، لا يناقش ولا يراجع ولا يفكر ، إنما يثق ويتلقى وينفذ .

وفي سبيل الوصول إلى ذلك تغلف الجماعات المتطرفة أعمالها بسيارات متعددة من السرية والكتمان ، وتعمل في عالم الخفاء ، فهم كالخفافيش التي لا تستطيع أن تحيا إلا في الظلام .

وتتخذ هذه الجماعات من أدلجة بعض العلماء والمثقفين وسيلة لأدلجة المجتمع أو أوسع قطاع ممكن منه ، وطبعه بطابعها ، أو إيمانه بأفكارها ، وعلى أقل تقدير تعاطفه معها ، وفي سبيل ذلك تبذل لهؤلاء من أدياء العلم

والثقافة من المكاسب والمصالح والمنافع ما يربطهم بها برباط وثيق ، مع ما يعلمه هؤلاء من العقاب المنتظر لمن يفكر في الخروج على هذه الجماعات .
ومن ثمة كان لا بد من الحديث عن خطورة الأدلجة أو الوقوع في شراكها ، ونلخص ذلك في نقاط :

١- أن أكثر العلماء والمفكرين والمثقفين الذين وقعوا في براثن هذه الجماعات لم يستطيعوا الفكك منها رغبًا أو رهبًا ، غير أنهم قد خسروا أنفسهم وحریتهم ، وانساقوا إلى طريق اللاعودة واللارجعة ، ولو على حساب دينهم أو بلدهم أو إنسانيتهم ، أو أي شيء آخر غير الولاء لهذه التنظيمات التي لا تعرف الرحمة بمن يفكر في الخروج عنها أو عليها .

٢- أن أي عالم أو مفكر أو مثقف يمكن أن تُشترى ذمته على حساب قضايا دينه أو وطنه لخائن للدين والوطن ، كما أن على الوطن أيضًا أن يحتضن علماءه ، ويبصرهم بالتحديات التي تواجهه ، وبما قد لا يقفون عليه من صعوبات وتحديات ؛ ليدركوا ما يمكن أن يغيب عنهم من فقه الواقع وتحديات الظرف الراهن ؛ لتنضبط رؤاهم وفتاواهم مع ما يتطلبه فقه هذا الواقع دون إفراط أو تفريط .

٣- أن العالم أو الواعظ أو الإمام غير المؤدلج فكريًا ، وبعبارة أكثر وضوحًا ومباشرة : غير المنتمي فكريًا أو تنظيميًا لأي جماعة كانت ، هو سهل الرجوع إلى الحق والالتقاء معك في منطقة وسط ، وقابل لأن يسمع الرأي الآخر ، وألا يجادل إلا بالحق وبالتالي هي أحسن ، وألا يدعو إلا بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومتى تبين له وجه الحق عاد إليه ، شاكرًا من رده إليه ردًا

جميلاً ، أما العالم أو الواعظ أو الإمام أو الخطيب أو المفكر أو المثقف المؤدج
المتنمي فكرياً أو تنظيمياً لأي جماعة أو تيار فهو إما غير قابل للحوار أصلاً ،
أو غير قابل إلا للحوار الجدلي العقيم على طريقته هو التي لا يمكن أن
تؤدي إلا إلى طريق واحد هو ما يريد بك الوصول إليه وحملك عليه
وإرغامك على فكرته ولو بالباطل ، وبكل ما يخالف العقل والمنطق .

٤ - إذا كان الانتماء لهذه الجماعات يُشكّل خطراً داهماً على النسيج الوطني
وفي كل مفاصل الحياة ، فإن الأمر هو أكثر خطراً وأشدّ بلاءً عندما يتعلق
الأمر بالدين والفكر والتربية والهوية ، ولذا فإني أؤكد وسأظل أؤكد على
عدم تمكين أي من المتمنين للجماعات المتشددة والمتطرفة لا من صنع القرار
الديني ولا الفكري ولا الثقافي ولا التعليمي ولا التربوي ، ولا حتى مجرد
التمكن من تشكيل العقول وبخاصة عقول النشء والشباب .

٥ - أن ما تقوم به هذه الجماعات المتطرفة هو عين الجناية على الإسلام ،
ذلك أن ما أصاب الإسلام من تشويه لصورته على أيدي هؤلاء المجرمين
بسبب حماقاتهم لم يصبه عبر تاريخه على أيدي أعدائه من التتار وغيرهم بما
ارتكبه من مجازر في الماضي وما يصيبه على أيدي داعش ، والقاعدة ،
والنصرة ، وبوكو حرام ، وأضرابهم في الحاضر .

* * *

ألف وجه ووجه لجماعة الإخوان الإرهابية

جماعة الإخوان الإرهابية ليس لها وجه واحد ، بل إن لها ألف وجه ووجهًا ، تتلون وفق ما تقتضيه مصلحتها ، مستحلة الكذب والخداع والمراوغة ، والأكثر سوءًا أنهم يعدون كل هذه الرذائل التي لا تمت للأديان أو الأخلاق بصلة دينًا يتعبدون إلى الله (عز وجل) به طالما أنه يحقق مصلحة الجماعة في سبيل التمكين السلطوي الذي تسعى إليه ، وكلما علت درجة العضو في الجماعة كلما اتسع نطاق الاستحلال والكذب والخداع والمراوغة لديه ، فكبيرهم في التنظيم لا بد أن يكون كبيرهم في العمل على تحقيق مصلحة الجماعة بأي وسيلة وكل وسيلة ، بل إنه لا يكاد يصل إلى هذه المكانة إلا بأحد أمرين : أحدهما الوراثة ، والآخر الوصولية والمزايدة في تنفيذ ما تتطلبه مصلحة الجماعة ، وإن خالف الشرع وتطلب سفك الدماء ، أو الإفساد والتخريب .

فكل حزب انبثق عن جماعة الإخوان الإرهابية وحلفائها أظهرت الجماعة الإرهابية نفض أيديها منه وأقسمت بالله ما لها إليه ولا له إليها من سبيل ، وربما هاجمته واعتبرت أعضائه خارجين على الجماعة ، عاقين لها ، وكثيرًا ما سارعت إلى فصلهم أو فصل بعضهم من الجماعة خداعًا وتمويهًا وإضلالًا للمجتمع .

وهذا كبيرهم ومرشدهم مهدي عاكف يعلن في أحد أحاديثه قبل وفاته أنه هو الذي صنع حزب الوسط ، وأنه كان مكلفًا من مكتب الإرشاد

بإنشاء هذا الحزب ووضع لائحته ، وأنه من قام بإنشاء الحزب من خيرة شباب الجماعة في نظره ، وليس بعيداً عن ذلك إنشاء غيره من الأحزاب التي خرجت من رحم هذه الجماعة الإرهابية ، من باب توزيع الأدوار ، والجماعة كانت تقسم وتجتهد في قسمها ما لها بهذا الحزب من صلة .

ومن ذلك إنشاؤهم وتكوينهم لجماعات مسلحة ، ورفض أيديهم ظاهرياً منها ، حيث ذكر بعض المنشقين عن الجماعة أنها فكرت ألف مرة ومرة وأعدت حساباتها بشأن الجماعات التنظيمية المسلحة التي تنشئها وتمولها وتحتضنها ، فاعترفت الجماعة بأن من أهم أخطائها التاريخية التي وقعت فيها هو أنها عندما كونت التنظيم السري الخاص " الجناح المسلح للجماعة " ربطته باسمها فسمته " التنظيم السري " أو الجناح الخاص للإخوان المسلمين ، فُنسب إليها ما ارتكبه التنظيم من اغتيالات وعمليات إرهابية ، فقالوا: لقد تعلمنا الدرس ، فأخذوا يُكوّنون الجماعات المسلحة ويسمونها بأسماء حركية غير مرتبطة باسم الجماعة كحركة حسم الإرهابية ، حتى لا تنسب عمليات الاغتيال والقتل والتخريب التي تقوم بها هذه الأجنحة المسلحة للجماعة إليها ، وتظهر الجماعة على أنها الجماعة المسالمة الراضية للإرهاب ، وهي أكبر حاضنيه ومنشئيه وداعميه ، فهي الأب الروحي لمعظم الجماعات الإرهابية التي انبثقت من رحمها ، وعاشت في كنفها ، وعملت على دعمها ، حتى تلك الجماعات غير المرتبطة تنظيمياً بالإخوان فإن اهتمام الجماعة بها استراتيجي لأمر ، منها : وحدة الهدف في إفشال

الدول وإضعافها بما يسهل طريق الجماعة إلى الوصول للسلطة بها ، ومنها : استخدام هذه الجماعات المتطرفة عند الضرورة لصالحها ، ومنها : تجميل وجه الجماعة وتسويق أنها يمكن أن تكون البديل السلمي لكل هذه الجماعات الأكثر تطرفاً ، مع أنها الأشد خطورة بين كل التنظيمات الإرهابية، كونها الأكثر قدرة على النفاق والخداع والتلون واختراق المجتمعات والمؤسسات ، مما يتطلب كل الحيلة والحذر من الوجوه المتعددة لهذه الجماعة الإرهابية وأهدافها في اختراق المؤسسات ، وتضليل المجتمعات من خلال المتاجرة بدين الله والمزايدة به ، ومن خلال ما تملك من كتائب إلكترونية تستغلها في تشويه الرموز الوطنية ، والتقليل من الإنجازات الكبرى والتشكيك في كل شيء .

ولا يستطيع أحد أن ينكر شر هذه الجماعة الإرهابية ، فمهما حاولت تغيير جلودها فهي أشبه ما يكون بالثعابين والحيات ، بل إنها فاقت الثعابين حين تغير جلودها ، فأعضاؤها يجيدون التلون والخداع ، ويماسحون مماسحة الثعبان ، ويمكرون مكر الثعلب ، في صغار وهوان ، ونفوس مريضة ، وبعضهم قد يتقن ذلك لدرجة يصعب تمييزها ، بل قد تظهرهم على خلاف ما يبطنون من الحقد والغل على المجتمع وأهله ، وبعض هؤلاء لا يميزهم إلا أصحاب القلوب البصيرة ، والعقول الواعية، والفكر المستنير ، وبعضهم قد يستعصى كشفه حتى على هؤلاء ؛ لأنهم مردوا على النفاق حتى صار لهم طبعاً وسجية ؛ لأن من يستحلون دماء

مخالفهم وأموالهم لا يمكن أن يعدوا الكذب عندهم حرامًا وإن تفننوا له في ألف اسم واسم ، وهو ما تنتهجه كل الجماعات الإرهابية ، وصار منهجًا واضحًا للجماعة الأم المعروفة بجماعة الإخوان ، ولا سيما على مستوى القيادات والمنظرين والأعضاء الرسميين ، ومن يسير في ركابهم ممن يعرفون بالموالين الذين استطاعوا خداعهم وغسل عقولهم ، مما يتطلب منا جميعًا كشف ما تنطوي عليه هذه الجماعة من نفاق وشر ، وبيان حقيقتها المراوغة ، حتى لا ينخدع بها العامة والدهماء ، وحتى لا تتمكن مرة أخرى من تجنيد من ينخدعون بمتاجرتها الكاذبة بدين الله (عز وجل).

* * *

الإخوان وانفصام الشخصية

في الوقت الذي ظل الإخوان يصدعون رءوسنا فيه بادعائهم الخوف على الدين تارة ، وحرصهم على الوطن أخرى ، وتصوير أمريكا على أنها الشيطان الأكبر ، والغرب على أنه العدو الصليبي ، متاجرين بذلك ، محاولين إحداث أكبر شرخ في عقول الشباب تجاه تقارب الحضارات والعيش الإنساني المشترك ، ذلك التعايش الذي نؤمن به ونسعى للتوافق في إطاره ، إذ ما لا يمكن ولا يتصور ولا يقبل ولا يطلب ، بل ليس من الإسلام ولا من الإنسانية ولا من أي دين ولا عرف أن يعمل دين أو طائفة أو مذهب معين على إبادة الآخرين أو تدميرهم أو التنكيل بهم .

ولقد فوجئنا بهذا الكم الهائل من القيادات الإخوانية التي استولت على أموال العامة والبسطاء والمتبرعين الذين خُدعوا بهم وبشعاراتهم ، ليحصلوا من خلالها ومن خلال سفرياتهم المتكررة إلى أوروبا وأمريكا وإثبات ولادة أبنائهم بهذه البلدان على الجنسية الأمريكية أو الأوروبية للاحتفاء بها عند اللزوم ، فهم كما أكدت مرارًا لا يؤمنون بوطن ولا بدولة وطنية ، وإلا فما السر وراء استماتتهم في الحصول على الجنسية الثانية لهم أو لأبنائهم ، ولماذا كانت هذه الدول تمنحهم وتمنح أبنائهم جنسيتها وهي تعلم من هم ، لولا عمالتهم لهذه الدول واستخدامها لهم لتحقيق أغراضهم في المنطقة العربية واتخاذهم رأس حربة لتشويه صورتها من جهة والعمل على تفتيتها وتمزيق كيانها من جهة أخرى؟! وأكتفي في ذلك بمشاهدين :

١ - رسالة الخائن محمد سلطان التي أرسل بها إلى الرئيس أوباما ، والتي جاء فيها وفق ما نقلته مواقع التواصل : " اسمي محمد سلطان ، أبلغ من العمر ٢٦ عامًا ، أنا مواطن أمريكي ، نعم لدي أصول مصرية ، ولكنني ترعرعت في كنساس بوسطن وديترويت وكولبماس أوهايو ، وكبرت في أمريكا أرض الأحرار والشجعان، أو على الأقل هذا ما تعلمته في الأمة التي أنتمي لها".

ويتابع : " تخرجت من جامعة أوهايو ، ومغرم بفريق بوسطن لكرة القدم ولدي إدمان غير صحي لبورتلاند .. أتذكر العمل لصالح حملة الرئيس باراك أوباما في مدينتي بالنسبة لي ، فكرة أن الكل متساوٍ في أمريكا هو ما جعلني أوّمن بقوة بالنجوم والسطور (في علم أمريكا) ، إنني أوّمن بنفس القيم والمبادئ التي بنى عليها الآباء المؤسسون (في أمريكا) هذه الأمة العظيمة".

فهذه هي وطنية الإخوان ، وهذه هي أمريكا بالنسبة لهم ، وهم الذين صدعوا رءوسنا بإعلان عدائهم الواضح والصريح لها .

٢ - هذا النداء الخبيث المعروف إخوانياً بنداء الكنانة الذي دعا فيه من يُسَمَّونَ أنفسهم علماء - وهم خونة عملاء - إلى التحريض ضد مصر وبخاصة ضد القضاة والإعلاميين ورجال الجيش والشرطة ، بل لم يسلم من تهديدهم مفتي الديار المصرية ، ويطالبون فيه باقتحام السجون وتهريب المساجين .

وقد أكدت في بيان عقب نشر هذا التحريض السافر على مصر وأمنها واستقرارها أن هؤلاء الموقعين على هذا البيان الإرهابي مجرمون في حق دينهم ووطنهم وأمتهم ، ويجب وضعهم جميعاً على قوائم ترقب الوصول هم ومن على شاكلتهم ؛ لأن العلماء لم يكونوا يوماً دعاة قتلٍ أو سفك دماءٍ أو تخريب وتدمير .

وقد أكدت مراراً أن الإخوان يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلوون أعناق النصوص لخدمة أغراضهم الخبيثة ، وأنهم يتخذون من الكذب وسيلة للوصول إلى أهدافهم ، وصاروا يستحلون الكذب من باب أن الغاية تبرر الوسيلة في ميكافيلية غريبة ، مما يتطلب منا جميعاً جهوداً غير عادية ومسابقة للزمن لكشف زيفهم وأباطيلهم وادعاءاتهم الكاذبة وقلبهم للحقائق وعماليتهم وخيانتهم {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} (١).

* * *

(١) الأنفال : ٣٠ .

دولة الجماعة الاقتصادية

لا يظن مصفق أو مطبل أو عميل أنه يمكن أن يكون له أي نصيب في حكم دولة الجماعة الذي لن يكون إن شاء الله تعالى ؛ لأن الله (عز وجل) لا يصلح عمل المفسدين ، ولا المخربين ، وقد استأصل الحق سبحانه وتعالى شأفتهم من الحكم في أقل من عام واحد ، بعد أن شاء سبحانه أن يكشف طبيعتهم ونهمهم للسلطة ومنهجهم الإقصائي لكل من لا ينتمي إلى قبيلة الأهل والعشيرة أبناء المفسد الملقب عندهم بالمرشد وعصابة مكتب الإفساد في إقصاء أيديولوجي مقيت ، ربما لم نقف في تاريخنا على إقصاء مثله بهذا التبجح وتلك الفجاجة التي رأيناها في عامهم الأسود المشؤوم ، الذي ما زلنا نعمل بكل قوة على إزالة ما خلفه من كوارث .

على أن دولة الجماعة إنما تحكمها التراتبية التنظيمية ، فقد رأى المجتمع كله رأي العين كيف كانت تدار الأمور في العام الأسود للأهل والعشيرة ، من تصعيد أحق لكوادرات الجماعة الجهلاء ، الذين لا حظ لهم من الفهم أو القيادة سوى الترتاب أو الولاء التنظيمي ، على نفس نهج الماسونية القديمة وأشد تطرفاً في التراتبية التنظيمية .

وإذا كانت جماعة الإخوان الإرهابية قد سقطت سقوطاً ذريعاً مدوياً سياسياً ومجتمعياً وأفلست فكرياً فإن هناك جانباً هاماً تستميت قيادات الجماعة وعناصرها في الحفاظ عليه ، وهو البناء الاقتصادي والمالي للجماعة ، وهو ما يمكن أن يطلق عليه "دولة الإخوان الاقتصادية" ، وهي التي لا

تقل خطرًا عن الجانب السياسي ؛ لأنها هي الرابط الذي يربط أعضاء وعناصر الجماعة الإرهابية برباط نفعي وثيق من خلال شراء أصحاب النفوس الضعيفة ، والتركيز على المهمشين أو المحرومين أو الأكثر احتياجًا ، حتى تجاوزهم إلى غيرهم من طالبي وراغبي الثراء بأي وسيلة ، حتى لو كانت غير مشروعة أو مدمرة ، إضافة إلى خطورة توظيف هذا المال في العمليات الإرهابية.

وقد قامت جماعة الإخوان بعمليات سطو واسعة النطاق على كثير من الجمعيات وتوظيفها لخدمة أغراضها ، مع ما تتلقاه من أموال تحت مسمى التبرعات وتوظيفها لصالح الجماعة.

ولهم منظومة اقتصادية أشبه ما تكون بالفكر الصهيوني ، بحيث إذا تاجر أحدهم في سلعة حيوية ألزم أعضاء الجماعة بالشراء منه ، فأحدهم مثلاً في تجارة الحديد والأسمت ، والآخر في تجارة الأخشاب ، وثالث في الأدوات الصحية ، ورابع في الملابس ، وخامس في الأدوات المكتتبية والهدايا ، فهم لا يؤمنون بالتكامل المجتمعي الشامل ، إنما يقسمون المجتمع إلى قسمين ، الأول: وهو الأولى بالرعاية والعناية والاهتمام وهم عناصر الجماعة ، والآخر: عامة الناس ، وهم في نظرهم ما بين فاسق ، أو كافر ، أو منافق ، أو عميل ، أو رقيق الإيمان ، أو غير ملتزم ، أو غير تابع لهم ، أو ناقص الأهلية الشرعية ؛ لأنهم يزعمون أنهم جماعة الله المختارة وأنهم الفرقة الناجية وغيرهم في الإحدى وسبعين فرقة الأخرى .

وعلى الجملة فإن غير المتمين للجماعة في نظرهم وتصنيفهم أناس من الدرجة الثانية ، إذ يصنفون كل من لم ينضم للجماعة على أنه إما ناقص الدين أو فاقده ، ويربُّون عناصرهم على ذلك .

وقد عمدوا إلى مجالات حيوية مثل شركات الصرافة ، والخدمات الطبية، والمدارس الخاصة ، مع إنشاء مجموعة من الشركات باسم بعض قيادات الجماعة لتكون غطاء لتلقي الأموال الخارجية أو استثمارها أو غسل أموال التبرعات ، حيث كانوا يجمعون أموالاً تحت مسمى المساعدات لصالح القدس أو الشيشان أو البوسنة والمهرسك أو الصومال ، ثم تُوظَّف لصالح الجماعة وعناصرها ، مما يتطلب النظر وبجدية والتعامل بحسب مع هذا المال المشبوه ، حتى لا يوظف في الإضرار بالمصلحة الوطنية ، أو أذى المواطنين أو الإساءة إلى صورة الإسلام والمسلمين ، وعلى الجملة فإن هذا الاقتصاد الموازي أو تلك الدولة الاقتصادية للإخوان تعد خطراً على الأمن القومي ، بل على أمن وسلام الإنسانية ؛ لأن تلك الجماعة كالحرباء لا تعرف ديناً ولا وطنية ولا وفاءً لأحد ، فصديق اليوم لديها عدو الغد ، لا يربطها بأحد سوى ما تحققه من خلاله من مصالح عاجلة ، وإلا فله منها الويل والثبور وعظائم الأمور .

* * *

الخلايا النائمة للإخوان والخطاب المزدوج

لا شك أننا في مواجهة الفكر المتطرف والجماعات المتطرفة في حاجة ماسة إلى تحليل الخطاب الإخواني في ضوء معرفة طبيعة هذه الجماعة الإرهابية ونظامها السري وأجهزتها السرية بداية من الجهاز السري الذي شكله حسن البنا إلى الميليشيات التي شكلها خيرت الشاطر ، إلى جانب العصابات التي شكلها مكتب الإرشاد في العقدين الأخيرين وبخاصة في عهد المعزول محمد مرسي .

ولا يستطيع أحد أن ينسى مظاهر استعراض القوة بداية بما عرف بمليشيات الأزهر ، مرورًا بحصار مدينة الإنتاج الإعلامي وتهديد الإعلاميين ، وحصار المحكمة الدستورية ، ومحاولات تعطيلها عن عملها، مع ما عرف به تاريخ الجماعة من اغتالات وتحالفات مشبوهة مع الجماعات الإرهابية ، وصيرورتها لجماعة للإيجار لمن يدفع ويمول ويستخدم.

ولا شك أن القيادات التنظيمية للجماعة قد احترفت الكذب والخداع ، والغاية لديهم تبرر الوسيلة أي وسيلة ، وصار لهم خطابان : أحدهما بالعربية لعناصرهم بالداخل وهو خطاب تحريض وتخريب يدعو إلى العنف، وإلى الاغتيالات والقتل ، والفساد والإفساد والتخريب ، والآخر خطاب باللغات الأجنبية موجه إلى الغرب يحمل المظلومية في انقسام مقيت للشخصية ، وازدواج غريب في طرق وآليات الخطاب ، وكأنهم لا يدركون أن عالم اليوم غير عالم الأمس ، وأن هذا الخطاب المزدوج صار مكشوفًا

مفضوحًا وفاضحًا لكذبهم وافتراءهم ، إضافة إلى بيان متاجرتهم بالدين ، هذا الدين العظيم الذي يدعو إلى الصدق بل إلى تحري الصدق وإلى حسن المراقبة لله الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، متناسين أو متجاهلين قول الله تعالى : { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ }^(١) ، وقوله تعالى : { وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ }^(٢) ، وقوله تعالى : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلِمَ مَا تُوسِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ }^(٣) .

وأخطر من هؤلاء المخادعين المراوغين أذنانهم وتوابعهم من الخلايا النائمة ، أو المنومة ، أو السرطانية ، أو الفيروسية ، التي تشكل خطرًا داهمًا ومدمرًا للمجتمع ، والتي لها خطابان وتصرفان أيضا ، خطاب وتصرف أمام العامة وفي العلن ، وآخر إذا خلوا إلى شياطينهم ، بحيث يتخذون من الخطاب المعلن تمويهًا على تحركاتهم السرية المشبوهة من حيث إيواء عناصر الجماعة ، أو التستر عليها وبخاصة الخلايا النائمة منها ، والعمل على

(١) المجادلة : ٧ .

(٢) الأنعام : ٥٩ .

(٣) ق : ١٦ - ١٨ .

التمكين لهم ، انتظارًا لهذا اليوم الذي يلمون به لتصدر المشهد مرة أخرى ، غير أن المجتمع وأجهزته الواعية أحرص وأذكى من أن يخدعوا بهذه التمويهات ؛ لأن المنافق يمكن أن يخدع بعض الناس بعض الوقت ولكنه لا يمكن أن يخدع كل الناس كل الوقت .

فالجماعة الإرهابية تسعى وبكل ما أوتيت من قوة إلى هدم الدولة ، سواء من خلال العمليات الإرهابية والتصفيات الجسدية ، واستهداف رجال الجيش والشرطة ، وعلماء الدين، ورجال القضاء والإعلام ، وكل من يشتم منه الحرص والعمل على استقرار الوطن ، أم من خلال عملهم على تعطيل مرافق الدولة من خلال الفساد والإفساد ، والتخريب والهدم ، وهو ما صوره القرآن الكريم في حديثه عن المنافقين فقال الحق سبحانه وتعالى :
{وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ} (١) ، ويقول سبحانه : {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّكُمْ كُشْبٌ مِّنْ شَجَرٍ مُّسْنَدَةٌ يَّحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ} (٢) ، ويقول سبحانه في شأن هؤلاء المنافقين الضالين المضللين المفسدين المخربين : {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ حَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

(١) البقرة : ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٢) المنافقون : ٤ .

وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ^(١).

فرجال أعمال الجماعة الإرهابية وممولوها يبذلون وسعهم في العمل على صنع الأزمات كلما لاحت لهم فرصة أو شبه فرصة أو دنت ، فإن لم تكن فرصة ولا شبه فرصة افتعلوا الأزمات وبثوا الشائعات لإضعاف الروح المعنوية للمجتمع وإصابته باليأس والإحباط ، ولتشويه الرموز عملاً على تشتيت جهودهم وجرهم إلى معارك جانبية أو كلامية ؛ لتعطيل المسيرة ، وبث الفرقة وإفقاد الثقة بين المرءوسين ورؤسائهم ، وإثارة القلاقل في المجتمع ، والفُتُّ في عضد بعض القيادات لتتخذ قرارات ليست في صالح الوطن إرضاء لبعض المطالب الفتوية التي كثيراً ما تحركها عناصر الجماعة المجرمة، فما تجد عناصر هذه الجماعة الإرهابية وخلاياها النائمة مطلباً فتوياً إلا حاولوا ركوبه وتوجيهه ، ولا أزمة أو شبه أزمة إلا دسوا أنوفهم فيها ، ووجهوا خلاياهم السرطانية والفيروسية لامتطائها وليّ عنقها وأخذها في اتجاه التصعيد والهدم .

إن خطر الخلايا النائمة والمنومة لا يقل عن خطر ما يسمى بالخلايا النوعية الإرهابية ، فكلاهما خطر داهم على أمن المجتمع وسلامه ، وكلاهما يهدف إلى هدم الدولة أو إسقاطها في برائن الفوضى والضياع ، وكلاهما ينتهج الإرهاب المادي أو المعنوي والتخريب مسلماً ومنهجاً ، مما يتطلب تضافر الجهود لاستئصال هذا الداء الذي استشرى في المجتمع مع بدايات

(١) المنافقون : ٧.

ظهور الجماعة الإرهابية ، ثم ازداد هذا الشر استشرأ بأفكار سيد قطب وما
تبناه التيار القطبي من رمي المجتمع بالجاهلية والكفر وضرورة المواجهة
وتغيير الواقع بالقوة ، ثم ازداد الأمر شراسة تكاد تصل إلى حد الجنون
باستباحة الدماء والقتل والتخريب والإفساد وتبرير جميع الوسائل القذرة
للوصل إلى تحقيق أهدافهم إما بالحكم والسيطرة أو التخريب والتدمير
وتقسيم الدول عمالة وخيانة مقابل مصالح ومنافع للجماعة والتنظيم
وعناصرهما التي تسعى في الدنيا لقبض ثمن عمالتها وخيانتها لدينها ولأمتها
ولأوطانها.

ولا يعدم الإخوان الإرهابيون أن يجدوا مبررًا لكل جرائمهم وأعمالهم
الإرهابية ومخادعتهم للمجتمع ، فيقسمون خطابهم المنبثق من أحوالهم إلى
خطابين مختلفين :

الأول : خطاب التمكّن ، وهو الذي يصدر عنهم حال تمكّنهم من
الحكم أو زمام الأمور ، وهو خطاب استعلائي إقصائي متعجرف ، لا
يعرف الرحمة ولا السماحة ، ولا يعلي سوى مصلحة أفرادهم وعناصره
وتابعيه، وإلقاء بعض الفتات على مريديه ومحبيه وعملائه ومؤيديه.

أما الخطاب الثاني فهو خطاب الاستضعاف ، وهذا خطاب يقوم على
الكذب والمداراة تحت عناوين أقرب ما تكون إلى التقيّة وربما إلى النفاق ،
ويؤهلون ناشئتهم وشبابهم على تقبل هذا التلون وهذا الخطاب المزدوج
بصورة شديدة الغرابة .

غير أن هذه الجماعات الإرهابية تجاهلت أو تناست حرمة هذه الدماء التي تسفك ، وتلك الممتلكات التي تدمر ، والبلاد والدول التي تحرب ، والنساء اللاتي يُرْمَلْنَ ، والأطفال الذين تشوه طفولتهم ، والأبرياء الذين تسفك ظلمًا وعدوانًا دماؤهم ، والعداري اللاتي يُغْتَصَبْنَ أو يُشَرَّدْنَ ، نسيت هذه العناصر أو تناست قول الله تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} (١)، وقوله تعالى: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} (٢) ، وقوله سبحانه في شأن عباد الرحمن : { وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا} (٣)، وقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " مَنْ أَسَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ حَتَّى وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ " (٤)، وقوله (صلى الله عليه وسلم) : " لَا يُشِيرُ أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ بِالسَّلَاحِ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ فِي يَدِهِ فَيَقَعُ فِي حُفْرَةٍ مِنْ " (٤) صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم ، حديث رقم . ٢٦١٦

(١) النساء : ٩٤ .

(٢) النساء : ٩٣ .

(٣) الفرقان : ٦٨ ، ٦٩ .

(٤) صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب النهي عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم ، حديث رقم

النَّارِ" (١)، وقوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): "مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السَّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا" (٢).

نسوا أو تناسوا قول الله تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} (٣)، وقوله سبحانه: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْنِدْتَهُمْ هَوَاءً * وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ رِوَالٍ * وَسَكَتْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ * فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ} (٤).

مما يجعلنا نؤكد خطورة تمكين عناصر هذه الجماعة من عقول الناشئة أو الشباب في أي مجال فكري أو دعوي أو ثقافي أو تربوي ، وبخاصة فيما

(١) صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، باب قول النبي (صلى الله عليه وسلم) : "من حمل علينا السلاح فليس منا" ، حديث رقم ٦٦٦١ .

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري ، كتاب الدييات ، باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى (وَمَنْ أَحْيَاهَا) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ مَنْ حَرَّمَ قَتْلَهَا إِلَّا بِحَقِّ حَيِّ النَّاسِ مِنْهُ جَمِيعًا ، حديث رقم ٦٨٧٤ ، وصحيح مسلم ، في المقدمة ، باب الْكُشْفِ عَنْ مَعَايِبِ رِوَاةِ الْحَدِيثِ وَنَقْلَةِ الْأَخْبَارِ وَقَوْلِ الْأَئِمَّةِ فِي ذَلِكَ ، حديث رقم ٧٥ ..

(٣) الشعراء: ٨٨ ، ٨٩ .

(٤) إبراهيم: ٤٢ - ٤٧ .

يتصل بمجال التنشئة الدينية ، وهذا يتطلب أن ننسق جهودنا لكشف طبيعة هذه الجماعة وخطابها المزدوج ، كل في مجاله وميدانه ، كما ينبغي التواصل مع منابر ومنصات الإعلام العالمية لبيان واقع هذه الجماعة الإرهابية ، وفضح كذبها وثقافتها ، وتملقها للغرب والعمل على استعدائه .

وإذا أردنا أن نقطع دابر هذا الفكر الإخواني بتنظيماته السرية يجب ألا نُخدع بتمويهات هذه الخلايا النائمة ، وأن نكون متيقظين لحركاتهم وتصرفاتهم ، لأن التحديات التي تحيط بنا لا تحتمل المراوغة ، أو إمساك العصا من المنتصف ، أو التلون والخداع ، إذ يجب أن نقف وبقوة وحسم ووضوح في مواجهة الفكر الإرهابي سرًا وعلنًا ، ظاهرًا وباطنًا ، وألا نُخدع بمعسول الكلام وظاهره من الخلايا النائمة ، والخلايا الميتة ، والخلايا السرطانية ، والخلايا الفيروسية لهذه الجماعة الإرهابية وعناصرها المتطرفة .

مع تأكيدنا أن ازدواج الخطاب الإخواني هو تأكيد على طمس البصيرة ، ولا يعدو أن يكون ضربًا من ضروب النفاق المجتمعي ، بل إنه ليتجاوزه إلى النفاق بمفهومه العام نظرًا لاحترافهم الكذب ، والنبى (صلى الله عليه وسلم) يقول : " آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ ، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ " ^(١) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ

(١) متفق عليه : صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب علامة المنافق ، حديث رقم : ٣٣ . وصحيح مسلم ،

كتاب الإيمان ، باب بيان خصال المنافق ، حديث رقم ٢٢٠ .

النَّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا ، إِذَا أُوْتِمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ،
وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ " (١) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي
إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صَدِيقًا ،
وَإِنَّ الْكُذْبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ
لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا " (٢) .

* * *

(١) متفق عليه: صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب علامة المنافق ، حديث رقم ٣٤ . صحيح مسلم ،

كتاب الإيمان ، باب بيان خصال المنافق حديث رقم ٢١٩ .

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب قول الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ

الصَّادِقِينَ) وَمَا يُنْهَى عَنِ الْكُذْبِ ، حديث رقم ٦٠٩٤ ، صحيح مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ،

باب فُتِحَ الْكُذْبُ وَحُسِّنَ الصِّدْقُ وَفُضِّلَهُ ، رقم ٦٨٠٥ .

عيون الإخوان وجواسيسهم

تحاول الجماعة الإرهابية زرع عيونها وجواسيسها في جميع مؤسسات الدولة ووحداتها الإدارية والمفصلية ، وفي جميع المصالح والقطاعات الحيوية، ممن مردوا من عناصرها على النفاق ، على نحو ما صورته القرآن الكريم من أحوال المنافقين الذين مردوا على النفاق ، فقال سبحانه في سورة التوبة : {وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمَنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ} (١).

وقد حدثنا القرآن الكريم حديثاً مفصلاً عن صفات المنافقين ، فقال سبحانه: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَدَعُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} (٢).

(١) التوبة: ١٠١ .

(٢) البقرة: ٨-١٥ .

وقال سبحانه: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ
اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ
فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ
اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ} (١).

وقال سبحانه: {وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِئَن يَمُنُّوا بِهِمْ وَاتَّخَذُوا آلِهَتَهُمْ آلِهَةً
يَفْرُقُونَ} (٢)، وقال سبحانه: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ
بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
هُمُ الْفَاسِقُونَ} (٣)، ويقول سبحانه: {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مَن
عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ
لَا يَنْفِقُونَ} (٤).

وبين لنا النبي (صلى الله عليه وسلم) أهم صفاتهم ، فقال : " آية
المنافق ثلاثٌ : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان " (٥) ،
وقال (صلى الله عليه وسلم) : " أربعٌ من كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ
كَانَتْ فِيهِ خِصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خِصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّىٰ يَدْعَهَا ، إِذَا أُوْتِمِنَ

(١) البقرة: ٢٠٤-٢٠٦ .

(٢) التوبة: ٥٦ .

(٣) التوبة: ٦٧ .

(٤) المنافقون: ٧ .

(٥) متفق عليه ، صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب علامة المنافق ، حديث رقم : ٣٣ . وصحيح مسلم ،

كتاب الإيمان ، باب بيان خصال المنافق ، حديث رقم ٢٢٠ .

خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ " (١) .

فالغاية لدى عناصر هذه الجماعة الإرهابية تبرر الوسيلة ، أي وسيلة كانت : قتلاً أو تخريباً ، أو تكفيراً وتفجيراً ، أو كذباً وافتراءً وبتاً للشائعات ، فقد نشأوا على الكذب والتقية ، وهم أشبه ما يكون بخفافيش الظلام التي لا يمكن أن تحيا في النور أبداً ، إنما سبيلهم الخيانة والعمالة والمكر والخداع ، ولكن شعب مصر بحضارته العريقة الضاربة في جذور وأعماق التاريخ لأكثر من سبعة آلاف عام يدرك ما يخطط له أعداؤنا من استهداف لأمن الوطن والعمل على إدخالنا في دائرة الفوضى والتشردم مستخدمين جماعة الإخوان الإرهابية وكتائبها الإلكترونية في الفساد والإفساد والتخريب والتدمير وبت الشائعات ، مما يتطلب منا جميعاً اليقظة التامة لهذه المخططات الخبيثة، والتعامل بحسم مع الخونة والعملاء ، وقطع أي يد تحاول أن تعبت بأمن هذا الوطن وأمانه ، أو أن تنال من ثوابته الوطنية ، أو تعمل على هدم بنيانه ، على أن ذلك كله إنما يحتاج إلى تضافر الجهود والوعي الشديد بما يخطط ويحاك لوطننا ومنطقتنا من أعدائنا المتربصين في الخارج وعملائهم من الخونة والمأجورين بالداخل ، مع إدراك أن جماعة الإخوان الإرهابية هي رأس الأفعى ومفتاح كل شر والحاضنة الكبرى لكل الجماعات الإرهابية، وأن القضاء عليها يعني زلزلة أركان الجماعات الإرهابية كافة ، مع تأكيدنا

(١) متفق عليه: صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب علامة المنافق ، حديث رقم ٣٤ . وصحيح مسلم ،

كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق ، حديث رقم ٢١٩ .

أن العالم لن يستطيع القضاء على الإرهاب قضاءً حاسماً ومبرماً ما لم يقض على التنظيم الدولي لجماعة الإخوان الإرهابية .

ومن ثمة يجب على جميع مؤسسات الدولة توخي الحذر والفرز الجيد لمن يتولون العمل القيادي بها وبخاصة المفاصل الحساسة بكل مؤسسة ، مع الضرب بيد من حديد وبلا هوادة أو تردد على يد كل من تثبت خيانتة لوطنه أو لمؤسسته ، وعمالته لهذه الجماعة والجهات التي تمولها ، أو تدعمها ، أو تساندها ، أو تستخدمها لخدمات مطاعمها ومصالحها ، وأجنداتها في تدمير وطننا ، وتفريق كيان أمتنا ومنطقتنا ، وتحويلها إلى كيانات أو دويلات ضعيفة ممزقة لا تنفع صديقاً ولا تضر عدواً ، ولا تملك من أمر نفسها شيئاً ، فتصير عالة وتابعة وأداة طيعة في أيدي قوى الشر والظلام والضلال .

* * *

هدم الرموز وزعزعة الثوابت

هناك جماعات ضالة أعمها الحقد وسواد القلب وانعدام البصيرة عن رؤية النور أو القدرة على العيش فيه ، فلم تجد بدءاً من العمل على إطفائه، وتحويل البسيطة إلى ظلام دامس ، ذلك أن هذه الجماعات إنما هي أشبه ما يكون بخفافيش الظلام ، يراوغك أحدهم مراوغة الثعلب ويماسحك مماسحة الثعبان ، ويلدغ لدغ الحية الرقطاء ، لا يستطيع أحدهم أن يواجهك لضعف حجته ، وقصر قامته ، وما يحمله في داخله وفي أعماقه من خزي وعار ، إنما يأتيك من الخلف ليطعنك من حيث لا تشعر ، على نحو ما تقوم به هذه الجماعات الجبانة الخسيسة الخائنة العميلة من استهداف جبان لبعض رجال قواتنا المسلحة البواسل وزملائهم من رجال الشرطة الساهرين جميعاً على أمن الوطن حدوده وربوعه ، واستهداف حراس العدالة والعلماء والمثقفين والمفكرين والإعلاميين الوطنيين على حد سواء .

وإلى جانب هذا الاستهداف الجبان هناك استهداف من نوع جديد ، وهو ما يعرف بحروب الجيل الرابع ، من بث وترويج الشائعات ، وتشويه الرموز ، والتشكيك في الإنجازات ، والعمل على خلق الأزمات ، وفق خطط مدروسة وممنهجة وممولة ، وعلى شراء الذمم قبل المساحات الإلكترونية ، حيث لا وازع من دين ولا خلق ولا وطنية ولا إنسانية .

فتباً لجماعة إرهابية خائنة ، تباً لجماعة لا خلاق لها ، تباً لجماعة جبانة مارقة ، تباً لجماعة تخلت عن كل الأخلاق والقيم الإنسانية ، تباً لجماعة تُربي

أبناءها على الخيانة والكذب ، على السباب والفسوق والفجور ، على النقية المقيتة ، على التلون والخداع ، جماعة تحالفت مع كل قوى الشر ، بل هي كما أكدت ولا أزال أؤكد أنها على استعداد أن تتحالف مع الشيطان نفسه ، بل ربما لأن الشيطان قد ضمن انحرافها مضى في سبيله يبحث عن إغواء آخرين ممن لم ينضموا إليها ليلحقهم بها أو يجندهم لها ، وإني لأشهد الله أنني أعرف أناسًا لا يُعرفون لا بصلاح ولا بتقوى ، ولا بتدين حقيقي ، ولا حتى بحرص على أداء الفرائض ، بل إن بعضهم مضيع للفرائض والأصول ، غير متعفف عن الحرام ، وقد ركبوا مركب النفعية للإفادة من الأموال التي تضح على هذه الجماعة ، أو طمعًا في مكاسب دنيوية أخرى .

غير أن الخطر الداهم الشديد أن ما يعرف بالمليشيات والكتائب الإلكترونية لهذه الجماعة الإرهابية تبذل كل طاقتها وتنشط نشاطًا ملحوظًا على مواقع التواصل وفي شراء مساحات واسعة بها وبكثير من وسائل الإعلام العالمية بتمويلات مشبوهة من دول ومؤسسات رعاية للإرهاب ودعمه وإيوائه .

لقد لجأت هذه الجماعات الإرهابية ومن يسيرون في ركابها أو يدورون في فلكها إلى التركيز على مواقع التواصل بعد أن نفذ رصيدها في الشارع وسقطت سقوطًا سياسيًا ومجتمعيًا وأخلاقيًا ذريعًا .

ومما لا شك فيه أن ما تقوم به هذه الكتائب يشكل خطرًا داهمًا على أبنائنا وشبابنا وعلى نسيجنا المجتمعي ولحمتنا الوطنية .

وهنا يجب العمل على محورين :

الأول : محور تحصين شبابنا ومجتمعنا من أن يقع فريسة لهؤلاء ، فعلىنا أن نسابق الزمن في كشف طبيعة هذه الجماعات وعناصرها وكتائبها الإلكترونية حتى لا يخدع بهم الشباب النقي ، وأن نكشف ما تتسم به هذه الجماعات من احتراف الكذب والافتراء على الله (عز وجل) وعلى الناس ، وأن نعمل على إشاعة قيمة الصدق وضرورة التحري والتثبت من الأخبار ، فليس كل ما يسمع ينقل أو يقال ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) :
" كَفَى بِالْمُرءِ كَذِبًا ، أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ " ^(١) ، ويقول الحق سبحانه وتعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ } ^(٢) ، ويقول (عز وجل) : { إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } ^(٣) ، فعلى الإنسان أن يتحرى الصدق ، ويتجنب الكذب ، ذلك أن الكذب يعد أهم علامات النفاق ، حيث يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ ، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اتُّمِّنَ خَانَ " ^(٤) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم) : " أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ "

(١) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب في التشديد في الكذب ، حديث رقم ٤٩٩٤ .

(٢) الحجرات : ٦ .

(٣) النور : ١٩ .

(٤) متفق عليه : صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب علامة المنافق ، حديث رقم : ٣٣ . صحيح مسلم ،

كتاب الإيمان ، باب بيان خصال المنافق ، حديث رقم ٢٢٠ .

التَّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا ، إِذَا أُؤْمِنَ حَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ،
وَإِذَا حَاصَمَ فَجَرَ " (١) ، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): " إِنْ الصِّدْقَ
يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ
صِدْقًا ، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّ
الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا " (٢) ، ويقول الحق سبحانه في
كتابه العزيز : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ } (٣) ،
ويقول (عز وجل): { إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ
وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ
وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ
فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً
وَأَجْرًا عَظِيمًا } (٤) .

أما المحور الثاني : فهو محور الحسم مع الجماعة الإرهابية وعناصرها
المفسدة المخربة القاتلة ، سواء أكان ما تمارسه قتلا حسيًا باستهداف الآمنين
والرموز الوطنية من خلال عملياتها الإرهابية التفجيرية التي لا تنقطع ، أم

(١) متفق عليه: صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب علامة المنافق ، حديث رقم ٣٤ . وصحيح مسلم ،

كتاب الإيمان ، باب بيان خصال المنافق حديث رقم ٢١٩ .

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب قول الله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا

مَعَ الصَّادِقِينَ } وَمَا يُنْهَى عَنِ الْكُذْبِ ، حديث رقم ٦٠٩٤ ، وصحيح مسلم ، كتاب البر والصلة

والآداب ، باب فُتِحَ الْكُذْبُ وَحُسِّنَ الصِّدْقُ وَفُضِّلَهُ ، حديث رقم ٦٨٠٥ .

(٣) التوبة : ١١٩ .

(٤) الأحزاب : ٣٥ .

كان القتل معنويًا من خلال استهداف الرموز والشخصيات الوطنية وبثّ الشائعات التي لا تنقطع حولها ، والتهوين من إنجازاتها لإحباطها ، والعمل على وضعها موضع السخرية والاستهزاء لتصغيرها والتقليل من شأنها وتجريئة العامة على النيل منها ، أم كان ذلك بالتشكيك في كل الإنجازات الهامة والمشروعات الكبرى لإحباط الناس وإصابتهم باليأس واللامبالاة ، أو تحريكهم تجاه التمرد والعصيان .

ولكي نقضي على هذا الخطر فلا بد من تغليظ العقوبة على جرائم النشر الإلكتروني التي تهدد أمن الوطن واستقراره ، كما أنها تشوه وعن عمد وقصد وسبق إصرار الرموز الوطنية ، وتعتمد التهكم والسخرية وسيلة لجذب العامة ولفت أنظارهم ، كما أنها تحرف القول والكلم عن مواضعه، وتلوي أعناق النصوص الدينية بما يخدم أفكارها التنظيمية وفكرها المتطرف، بل إنها تستخدم هذه المواقع في التحريض الصراح على العنف والتطرف ، بل تدعو صراحة إلى هدم الدول والمؤسسات، كما أنها تفتعل كثيرًا من الأزمات لهدم كيان الدولة وخدمة أغراض أعدائها ، في عمالة وخيانة وبنفعة مقيتة .

ولا تزال بعض المواقع والصفحات تنقل أو تتناقل بيانات الجماعة الإرهابية المحرّضة ورسائلها الموجهة ، ولا تزال صفحات عناصر الجماعة الإرهابية تبث أحقادها وسمومها في المجتمع ، وتعمل على تجنيد عناصر جديدة ، ولم شمل عناصرها القديمة عبر صفحاتها ، "وجروباتها " ،

وتكتلاتها الإلكترونية ، مما يعد خطرًا داهمًا يجب التنبيه له ، والعمل على سرعة القضاء عليه بكل شدة وحسم ودون تردد أو تأخير .

والخطر كل الخطر أن نقف موقف المتفرج أو المتردد ، بل يجب أن نكون في سباق مع الزمن لمحاصرة هذه الكتائب الإلكترونية والعناصر الإرهابية على كل المستويات : الدينية ، والثقافية ، والإعلامية بكشف زيفها وزيفها وضلالها وإضلالها ، وفسادها وإفسادها ، وخيانتها وعمالتها ، وخطرها على المجتمع بأسره ، وعلى كيان وبنیان الدولة الوطنية المدنية الديمقراطية الحديثة التي نسعى جميعًا إلى ترسيخ قواعدها ، وعلى الجوانب العسكرية والأمنية والاستخباراتية بكشف هذه العناصر الخائنة المخربة المفسدة في الأرض ، والأخذ على أيديها بقوة ، وتطبيق القانون عليها بحسم ، مع التأكيد الدائم على أن هؤلاء المجرمين لا علاقة لهم بالإسلام ، ولا علاقة للإسلام بهم ، فهو منهم ومن أفعالهم براء ، بل إنهم ليمثلون عبئًا ثقيلًا على الإسلام والمسلمين ، إنهم يشوهون الوجه الحضاري لديننا الإسلامي السمح .

ولو أن أعداء الإسلام استنفدوا كل طاقاتهم وأخرجوا كل ما في جعباتهم لينالوا من الإسلام وأهله ما نالوا معشار ما أحدثه هؤلاء الإرهابيون من صدع في بناء الحضارة الإسلامية الراسخة ، وما أحدثوه من تشويه وخدوش وكدوح في وجهها النقي الصافي .

إن شعب مصر بحضارته العريقة الضاربة في جذور التاريخ لأكثر من سبعة آلاف عام يدرك ما يخطط له الأعداء مستخدمًا جماعة الإخوان

الإرهابية وكتائبها الإلكترونية مع ما يُقدم لها من دعم منقطع النظير من مخبرات الدول التي تهدف إلى إسقاط منطقتنا في برائن الفوضى ، مما يتطلب منا جميعاً اليقظة التامة لهذه المخططات الخبيثة ، والتعامل بحسم مع الخونة والعملاء ، وقطع أي يد تحاول أن تعبت بأمن هذا الوطن وأمانه أو أن تنال من ثوابته الوطنية أو تعمل على هدم بنيانه ، على أن ذلك كله إنما يحتاج إلى تضافر الجهود ووعي شديد بما يخطط ويحاك لوطننا ومنطقتنا من أعدائنا المتربصين في الخارج وعملائهم من الخونة والمأجورين بالداخل ، مع إدراك أن جماعة الإخوان الإرهابية هي رأس الأفعى ومفتاح كل شر والحاضنة الكبرى لكل الجماعات الإرهابية، وأن القضاء عليها يعني زلزلة أركان الجماعات الإرهابية كافة .

حقاً لقد بلغ السيل الزبى ، وتجاوز الإرهابيون المدى ، فإما أن نكون أو لا نكون ، والله الذي لا إله إلا هو إننا لأصحاب قضية عادلة في الدفاع عن ديننا وأوطاننا وأعراضنا وأموالنا وأنفسنا ، وإنها لإحدى الحسينيين إما النصر والقضاء على هذه الجماعات والعناصر الضالة المضلة المارقة المخربة ، وإما شهادة نلقى بها الله (عز وجل) ونحن على أمل في عفوه وسعة فضله وواسع رحمته ومنه علينا بالقبول .

* * *

السقوط الأخلاقي للإخوان

سقط الإخوان سياسياً وبلا رجعة بإذن الله تعالى ، لتبنيهم العنف والقتل والتفجير وسفك الدماء منهجاً ، وتحولهم من جماعة كانت تدّعي السلمية وتظاهر بها إلى جماعة قتل وتطرف وإرهاب .

غير أن الذي أدهش ويدهش من انخدعوا بهذه الجماعة الإرهابية ولم يكونوا يدركون أنها أداة للإيجار من قبل أعداء الأمة لتفتيت كيائها هو ذلك السقوط الأخلاقي لأعضاء هذه الجماعة الإرهابية ، فقد تحلى أكثرهم عن كل القيم والمبادئ ، ولا ندري هل هم يستحلون الكذب والغدر والخيانة والأيمان الكاذبة ، أو أنهم أصيبوا بعمى البصيرة وطمسها فصاروا من شدة كذبهم وبهتانهم وافتراءاتهم على خلق الله يكذبون ويكذبون ويكذبون حتى صدقوا كذبهم ، وعدوه الصدق الصراح .

لا شك أن الأسس والنظم التربوية التي بنت عليها جماعة الإخوان فلسفتها هي أسس خطيرة مدمرة ؛ لأنهم يلوون أعناق النصوص ويُنزلونها في غير موضعها بما يبيح لهم الكذب لخدمة أغراض الجماعة ، والمال القدر لصالح أهدافها ، وشراء الذمم لخدمة مصالحها ، فالغاية عندهم تبرر الوسيلة ، أي غاية ، وبلا أدنى قيم أو مبادئ ، يجمعون حولهم المنتفعين والمهمشين والمحرومين مالياً أو نفسياً أو اجتماعياً ، لغوايتهم بإشباع ما في نفوسهم من نقص ، مما يجعل ترك أي مؤسسة تعليمية أو ثقافية أو تربوية في أيديهم أمراً في غاية الخطورة ، ليس على مصر وحدها ، ولا على الأمة

العربية وحدها ، بل على الإنسانية ، وعلى صورة الإسلام والمسلمين .
إن التصدي لإجرام هذه الجماعة لا يُعد واجباً وطنياً فحسب ، بل يُعدُّ
مسئولية إنسانية ؛ لأن أفكار هذه الجماعة من شأنها أن تشكل خطراً على
الفكر الإنساني وعلى أمن وسلام واستقرار العالم ؛ لأنهم أدوات فرقة لا
أدوات وئام ، وأبواب فتنة لا أبواب سلام ، لا يؤمنون بوطن ، ولا بدولة
وطنية ، طبعهم الخيانة والغدر والتلون ، والكذب والتفاق ، ثم صاروا
أصحاب نفوس شرهة للدماء مصاصة لها، يؤمنون بأن خصومهم
ومناوئهم ومن لا يؤمنون بمبادئهم ولا ينضون تحت لوائهم ، لا
يستحقون الحياة الكريمة ، وكأنهم يدينون بعقيدة أنهم جماعة الله المختارة .
ولا أدري كيف لمن انخدعوا بمراوغتهم السياسية أن ينخدعوا بهذا
السقوط الأخلاقي المزري ، وكيف تأخر اكتشافهم لحقيقة وطبيعة هذه
الجماعة الإرهابية المشئومة الغادرة .

إننا لفي حاجة أن نذكر دائماً بخطورة أفكار هذه الجماعة على
الوطن ، وعلى الدين ، وعلى الإنسانية ، وعلى أمن وسلام العالم ، وأن نعمل
على كشف حقيقتهم على المستوى الوطني ، والعربي ، والإسلامي ،
والإنساني ، وألا نسمح لعناصر هذه الجماعة بالتغلغل أو التسلل إلى مرافق
الدولة وبخاصة الفكرية والتربوية والثقافية حتى لا يلوثوا عقول أبنائنا
وشبابنا بأفكارهم المسمومة .

* * *

مخاطر إيواء الإخوان

لا ينكر عاقل أو متابع منصف غير منحاز انتهاج جماعة الإخوان الإرهابية للعنف والتحريض على القتل ، وتحالفها مع أكثر الجماعات تطرفاً في العالم ، كما لا يستطيع أحد أن ينكر انحدارها الأخلاقي إلى درجة لا يمكن التعايش معها أو القبول بها ، أو حتى معاشتها ؛ ، لأنها في عدواها أشد خطراً من الإيدز والفيروسات القاتلة ، وعلى حد قول الشاعر: " فإن خلائق السفهاء تُعدي"^(١) ، وأظن أن من يحتضنون الإخوان بأي لون من ألوان الاحتضان يمكن تصنيفهم على النحو التالي :

الأول : تلك الدول التي تحتضن الإخوان ، لتستخدمهم في خدمة أهدافها وأغراضها ، وتحقيق مطامعها في منطقتنا العربية ، والعمل على تفكيكها وتفكيكها وتمزيقها لصالح أعداء الأمة المتربصين بها .

ولا شك أن هذه القوى تنظر إلى الإخوان على أنهم مجرد أداة ، ومع أنها تدرك طبيعتهم الغادرة الماكرة ، إلا أن تحالف المصالح قد يجمع الفرقاء والمتناقضين ، مع إدراك هذه القوى العالمية أنها حتى إن لم تصل إلى مقاصدها ومراميها من خلال استخدام عناصر هذه الجماعة الإرهابية الضالة فإنها ستنجح على أقل تقدير في استخدامهم في إثارة القلاقل والفوضى والإرباك في بلادنا ومنطقتنا ، وأنهم مجرد جماعة أجيعة لمن يدفع لها

(١) ديوان أبي العلاء المعري ، ص: ٣٧٢ .

أو يستخدمها ، وقد تظن بعض هذه القوى أنها تكسب إلى جانب ذلك لونا من استقطاب الجماعة قد يقيها شرها ولو إلى حين .

الصف الثاني: هو تلك الدول أو القوى التي ربما لا تريد أن تدخل في مواجهة صريحة مع الجماعة ، أو لها حسابات خاطئة في توازنها السياسية، أو بها تيارات متعاطفة مع الجماعة ، فتوهم مجتمعاتها بأنها تسهم في دفع المظلومية الكاذبة عن الجماعة أو أنها تتقي شرها ، أو أن الوقت غير مناسب لمواجهتها ، بما يضيف على الجماعة هالة لا تستحقها ولا هي عليها ؛ لأنها جماعة خسيصة جبانة ، لا تفي بعهد ولا بوعد ، طبعها الغدر والخيانة والكذب، وسبيلها الميكافيلية الرهيبة المقيتة ، فالغاية لديها تبرر كل الوسائل .

وإذا كنا نؤكد أن ديننا دين الرحمة فإنهم سلكوا كل سبل العنف ، وإذا كنا نؤكد أن ديننا دين البناء والتعمير فإنهم يتتهجون سبل الإفساد والتخريب ، وإذا كنا نرى في مقدمة علامات الإيمان الصدق ، فإن الكذب قد صار لهم طبعاً وعلامة وسمة ، وإذا كنا نرى الوفاء بالعهود جزءاً لا يتجزأ من أخلاق الإسلام فإن الغدر وخلف العهود والوعود قد صار لهم سجية ، وإذا كان نبينا (صلى الله عليه وسلم) يقول : " لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ " ^(١) ، فإن أفعالهم وتصرفاتهم تأتي على عكس ذلك ونقيضه .

(١) مسند أحمد ١٩ / ٣٧٦ ، حديث رقم ١٢٧١٨ ، والسنن الكبرى للبيهقي ، كتاب الوديعة ، باب ما جاء في التزغيب في أداء الأمانات ، حديث رقم ١٢٤٧٠ .

ولهؤلاء وأولئك نؤكد :

١- أن عناصر الإخوان خطر داهم ، أينما حلُّوا لا يأتون بخير ، وأن وصف ذي الوجهين كأنما لم يكن إلا لهم ، وإن أخطأهم فلن يجد شرًّا منهم في ذلك ، والدليل على ذلك أن لهم خطابين مختلفين تجاه أوطانهم ، الأول لعناصرهم بالحث على العنف والتخريب والفساد والإفساد ، والآخر ما يسوقونه للعالم الغربي بأنهم ضحية وليسوا جلادين سفاكي دماء ، ومن لا خير له في وطنه فلن يكون فيه أي خير لمن سواه .

٢- أن هذه الجماعة كخفافيش الظلام ، تعشق التنظيم السري ، والعمل في الكهوف ، وإذا كانت لا تؤمن بوطن ولا بدولة وطنية فإنها كذلك لا تحفظ جميلًا ولا تبقي على معروف ، وأنها سريعة التقلب كالحرباء ، وسرعان ما تقضم اليد التي تمتد لها بالخير ، ولن يتورع مفسدوها عن توجيه ضربات قاسية حتى للدول التي تأويهم أو تساندهم ، أو تتعاطف معهم متى صدرت فتاوى مرشديهم أو قُلُّ مضللوهم بذلك ، ومتى كانت مصلحتهم في هذا التقلب ، فصديق اليوم عدو الغد متى أبدى اعتراضه عليهم أو تخليه عنهم ، ثم إنهم متى حلوا دارًا أو بلدة اجتهدوا في أخونة أكبر قدر ممكن من أبنائها ورجالها والعناصر التي يتوقع أن تكون نافذة فيها يومًا ما ، ذلك أنهم ينتهجون منهج الاستعمار الذي رباهم على زرع ذبول وأتباع وعناصر لهم في كل مكان يحلُّون فيه .

٣- وإذا كنا نتحدث عن مخاطر إيوائهم في الخارج فإن التستر على عناصرهم المخربة في الداخل جريمة لا تغتفر ، والتستر على من ينتهجون العنف مسلماً أو يدعون إليه منهم خيانة للدين والوطن .

ويجب على كل وطني غيور على وطنه أن يحتاط في تعامله وبخاصة في تأجير المساكن المفروشة ونحوها ، حتى لا يسهم أحد دون أن يقصد في إيواء العناصر الإرهابية أو الهاربة من العدالة ، وألا يمكن للعناصر الإرهابية من هذه الجماعة من أي عمل قيادي في أي مفصل من مفاصل الدولة القيادية ؛ لأنهم أينما حلوا لا يأتون بخير ، إذ إن قلوبهم السوداء قد انطوت على الفساد والإفساد وكره المجتمع والشعور بالتميز عليه ؛ إذ يترسخ في أذهانهم ظلماً وزوراً أنهم جماعة الله المختارة ، وكل من ليس معهم فهو عليهم أو خائن ، مما يستدعي أقصى درجات اليقظة من هذه الجماعة الإرهابية وعناصرها الشريرة وحلفائها المغرضين .

* * *

نحن نراكم

كان نبينا (صلى الله عليه وسلم) أفصح الناس ، وأبلغ الناس ، ويعدون من عظيم بلاغته (صلى الله عليه وسلم) أحاديثه التي جرت مجرى الحكمة أو المثل ، كقوله (صلى الله عليه وسلم) : "لَا يُلْدَعُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ" ^(١) ، وهكذا كان صحبه الكرام (رضوان الله عليهم) ، فكان سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول : " لست بالخب ولكن الخب لا يخذعني" ^(٢) ، ويروى عن المغيرة بن شعبة (رضي الله عنه) أنه كان من دهاة العرب ، وكان يقول: " لولا الإسلام لمكرت مكرًا لا تطيقه جزيرة العرب" ^(٣).

ويجب أن نأخذ من دروس الماضي ما نبني عليه الحاضر وننتقل به في المستقبل ، وأن نتذكر التاريخ الأسود للجماعات المتطرفة وفي مقدمتها رأس الأفعى جماعة الإخوان الإرهابية التي احترفت العمل السري متجاوزة إياه

(١) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب في الحذر من الناس ، حديث رقم ٤٨٦٤ .

(٢) اشتهرت نسبة هذا الأثر لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، بلفظ "لَسْتُ بِخَبٍّ وَلَا يُخْدَعُنِي الْخُبُّ" ، كما في إعلام الموقعين لابن القيم ٣/ ١٨٩ ، وقد نسبته جماعة منهم وكيع بن الجراح في "أخبار القضاة" ١/ ٣٤٨ ، وابن عساكر في "تاريخ دمشق" ١٠/ ١٩ ، والمزي في "تهذيب الكمال" ٣/ ٤١٨ ، لإياس بن معاوية (رحمه الله) بلفظ "لست بخبٍّ ، والخبُّ لا يخذعني ، ولا يخذع ابن سيرين ، ويخذع الحسن ، ويخذع أبا معاوية بن قرة ، ويخذع عمير بن عبد العزيز" ، وهذا اللفظ وكيع .

(٣) وجدت هذا القول منسوبًا إلى الصحابيِّ الداهية الجواد : قيس بن سعد بن عبادة سيد الخزرج ، انظر : كوثر المعاني الدراري في كشف حبايا صحيح البخاري ، لمحمد الخضر بن سيد عبد الله بن أحمد الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٥٤هـ) ، ط: مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة ، الأولى ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م (١١ / ٤٧٤).

إلى التقية والنفاق ، بل إن بعض أعضائها طبع على ذلك لدرجة يصعب على كثيرين تمييزها ، على حد قوله تعالى في شأن بعض المنافقين : {وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ} (١).

وإذا كنا نؤكد أن الإرهاب لا يمكن أن يعمل إلا في ضوء حواضن تحتضنه وتأويه وتنميه وتوفر له المناخ الآمن ، فإن عناصر الجماعة الإرهابية لا يمكن أن تتسلل إلى المؤسسات إلا من خلال خلايا نائمة أو متعاطفة تهيئ لها ذلك وتساعد عليها وتمكن لها فيه ، وإن الأمر لجد خطير ، وليس الحل في ترحيل المشكلات وتأجيل المواجهة إلى آمام غير محدودة حتى يستفحل شر هؤلاء ويشتد عضدهم ، ويشكلون ما يشبه اللوبي أو المافيا داخل بعض مؤسسات الدولة بصورة يخشى معها شرهم ومكرهم ، وبحيث يتحولون مع الوقت من مخادعين أو منافقين أو متسللين إلى مافيا يتقرب إليها الضعفاء والباحثون عن المصالح والمنافع ، ولا سيما أن القيادات والعناصر الإخوانية لا دين لها ولا خلق ولا أمانة ولا وطنية ، فهي تغدق على المواليين لها وتستخدم أقصى درجات المنع والحرمان والإقصاء للمخالفين أو المعارضين أو حتى غير المواليين لإخضاعهم وكسر إرادتهم .

وإذا تُرك بعض الناس وحالهم دون دعم فإن المراهنة على قوتهم وصلابتهم مراهنة خاطئة وغير مضمونة العواقب أو النتائج ، ففي كل يوم

(١) التوبة : ١٠١ .

نتردد فيه في القضاء على تسلط العناصر الإخوانية ومن يواليها أو يمكنها من رقاب بعض الخلق نخسر مساحات واسعة من الأرض التي يجب أن نتحرك عليها والسواد الأعظم الذي نراهن على وطنيته .

نحن في حاجة إلى تحرك سريع وحاسم وبتار وغير هيباب ولا متوجس في جميع المجالات والاتجاهات ، وفي جميع المؤسسات لقطع أذرع الجماعات الإرهابية وتجريدها من أي مصادر قوة ، دفعًا لخطرهما الداهم وشرهما المستطير .

لقد حاولت تلك الجماعات الإرهابية المتطرفة سابقًا التسلل عبر بعض الجمعيات والنقابات والمؤسسات حتى صاروا نافذين فيها ، ومسيطرين على كثير منها ، مما عرّض الوطن لخطر جم ، دفعه الله عنا بفضله وكرمه ، ثم بفضل قائد شجاع جسور هو سيادة الرئيس / عبد الفتاح السيسي ، ومن خلفه قواتنا المسلحة الباسلة ، التي ما زالت وستظل تسطر ملاحم البطولة والفداء الوطنية ، وفية على العهد في مواجهة قوى الإرهاب والشر ، ومعها رجال الشرطة الأوفياء ، وكل كاتب أو إعلامي أو وطني غيور على وطنه . ولا يظن أحد أن المعركة قد انتهت أو أن المواجهة قد حسمت ؛ لأن نفوس الشر لا تهدأ ، وهناك من يدعمها ويستخدمها ويمولها ويحركها ، وما لم نتحل باليقظة والشجاعة والحسم فإن الأمر لجد خطير .

وأؤكد أن من المحزن في هذه المرحلة الفارقة في تاريخ وطننا وأمتنا ، والتي تقتضي منا جميعًا أن نقف وقفة رجل واحد في مواجهة الإرهاب

وقوى الشر والظلام أن يتردد البعض في حسم هذه المواجهة التي تقتضي أكثر درجات الحسم ، إذ إن بعض الناس ما زالوا مخدوعين أو مترددين في وقت نحتاج أن ندود فيه بشجاعة عن حمى الوطن الذي هو القلب النابض للعروبة والإسلام ، وصمام الأمان لأمتنا العربية ، وعمود خيمتها ، بل هو رأس الحربة في مواجهة الإرهاب وكف شره عن الإنسانية .

على أن هناك أيضًا من يراهن على الحصان الخاسر ، ويتوجس من الوهم، ويخشى أن تدور الأيام إلى الخلف ، فلا تجد لهم موقفًا واضحًا ، وهناك من هو على استعداد لأن يتحالف مع العنف والإرهاب ومن تبنا العنف والإرهاب مسلكًا ، أو مع بقايا الفصائل المتشددة أو الإرهابية ، أو ما يعرف بالخلايا النائمة لها ، دون تقدير للمصلحة الوطنية ، ونقول لهؤلاء جميعًا : أفيقوا ، ولا ترددوا ، وأدركوا الواقع ، فإما أن نكون أو لا نكون ، أما إمساك العصا من المنتصف فذلك عصر قد ولى إلى غير رجعة ، ونقول لهم : " نحن نراكم " .

* * *

مفهوم الصحوة بين الحقيقة والتزييف

لعبت جماعات التطرف الديني على عواطف الشباب من خلال مصطلحات زائفة ، ظاهرها فيه شحذ الهمم وباطنها من قبله الفساد والإفساد والضلال والبهتان ، ومن هذه المفاهيم التي تاجرت بها جماعات التطرف الديني مفهوم (الصحوة) كمصطلح تنظيري لجماعة الإخوان الإرهابية ومن سار في ركابها من الجماعات المتطرفة.

والصحوة في منظورهم هي صحوتهم هم ، لكن ضد من؟ ضد أوطانهم!! قصد إضعافها وتمزيقها وتفكيك بناها الوطنية بغية الاستحواذ على السلطة ؛ لأن هذه الجماعات لا يمكن أن يكون لها وجود في ظل أي دولة قوية صلبة متماسكة ، فهي لا تقوم إلا على أنقاض الدول ، ومصصلحة الجماعة عندهم فوق الدولة ، ومصصلحة التنظيم فوق الأمة ، وفوق الدنيا وما فيها ، سلاحهم الكذب وبث الشائعات والأراجيف والزور والبهتان ، وغايتهم الهدم والتخريب ، فهم لا يحسنون سوى الهدم ، أما البناء وال عمران فهيئات هيهات.

على أن استحلال عناصر وأبواق هذه الجماعات وكتائبها الإلكترونية للكذب وبث الشائعات والافتراءات ، وتشجيع قياداتها على ذلك ، وتحصن الكثير منهم خلف حسابات وهمية هو عين النفاق ، وأكبر إساءة إلى الإسلام في تاريخه ، بما يؤكد أنهم قد وصلوا إلى أقصى درجات الانسلاخ من الإنسانية السوية ، فقد سئل أحد النقاد عن أهجى وأقسى بيت قالته

العرب في الهجاء ، فقال قول جرير^(١) :

إن يغدروا أو يجبنوا أو ييخلوا لا يحفلوا

يغدوا عليك مرجليـ من كأنهم لم يفعلوا

وحقاً كما قال نبينا (صلى الله عليه وسلم) : " إذا لم تستح فاصنع ما شئت"^(٢) ، ناهيك عن دعوة هؤلاء المجرمين إلى العنف واستحلال الدماء واستباحة الأموال ، ودعوتهم إلى هدم الأوطان وإشاعة الفوضى ، حيث يقول الحق سبحانه : { وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ }^(٣) ، مما يستوجب كشف كذب هذه الجماعات وعمالتها وخطرها على الدين والوطن .

أما الصحة الحقيقية فهي صحة الأوطان والأمم ، عندما نعلمها بالبناء والتعمير ، ونرى أمتنا في مصاف الدول المتقدمة ، وفي مقدمة الأمم في مختلف المجالات والعلوم والفنون لا في ذيلها .

مقياس الصحة الحقيقي هو في مدى تقدم الدول علمياً واقتصادياً وامتلاك أدوات العصر ، الصحة الحقيقية هي ما نشهده الآن في الدولة المصرية الحديثة من بناء وتعمير ومشروعات قومية كبرى وعملاقة في

(١) كتاب الصناعتين لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ) المحقق : علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، ط: المكتبة العنصرية ، بيروت ، عام النشر ١٤١٩ هـ ، ص ١٠٦ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الأدب ، باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت ، حديث رقم ٥٧٦٩ .

(٣) البقرة : ٢٠٤ .

مختلف المجالات ، ودخولنا عالم الطاقة النظيفة والطاقة النووية السلمية، وإطلاق طيبة (١) لخدمة الاتصالات العصرية ، وأودية التكنولوجيا ، وعالم الذكاء الاصطناعي ، وسائر مجالات البناء والتعمير .

الصحة الحقيقية هي صحة الضمير والقيم والأخلاق ، عندما نعمل الدنيا بالتسامح والصدق ، بالأمانة والوفاء ، بمكارم الأخلاق ، بترجمة أخلاق الإسلام وقيمته وتعاليمه السمحة إلى واقع ملموس ، في سلوكنا ، ونظافتنا ظاهراً وباطناً ، ونظافة مجتمعاتنا ، واحترام النظام العالمي ، والعمل على رفعة شأن مؤسساتنا الوطنية داخلياً وخارجياً.

الصحة الحقيقية تكمن في تعظيم قيم الولاء والانتماء الوطني ، وترسيخ أسس العيش المشترك بين أبناء الوطن دون تمييز على أساس الدين أو اللون أو الجنس ، وبث روح الرحمة والتسامح والتكافل بين أبناء الوطن جميعاً ، وبلا أي استثناءات .

* * *

خطورة الكيانات الموازية

عمد مؤسس الجماعة الإرهابية التي أطلقت على نفسها جماعة الإخوان إلى تأسيس الكيانات الموازية لكيانات الدولة قصد ضرب المؤسسات الرسمية للدول وإحلال الكيانات الموازية التابعة للجماعة محلها، فأسس الكيان الدعوي للجماعة الإرهابية في محاولة لإحلاله محل الأزهر الشريف ومؤسساته الدعوية ، وفي سبيل ذلك عمدت الجماعة إلى تشويه صورة علماء الدين بالمؤسسات الرسمية من الأزهر الشريف وعلمائه، وعلماء وأئمة الأوقاف والإفتاء ، حتى يخلو لهم الجو لغسل عقول الناس ونشر أيديولوجياتهم وفلسفاتهم المدمرة ، واللعب على عواطف العامة بأنهم حماة الدين وحماة الشريعة ، وأنهم رعاة تطبيقها دون سواهم ، مع رمي المجتمعات بالفسق والكفر أو البغي أو الجاهلية ، مستشهدين بظواهر نصوص دون أن يفهموا معناها أو سياقها أو مقصدها أو مرماها ، ليجندوا بذلك عناصر تتبعهم سياسياً وتسهم في تقوية جماعتهم وتحقق مطامعها ، وأخذوا يبثون في الناس أن العلماء الرسميين لا يتقون الله وليسوا محل ثقة، وأخذوا يزجون بعناصرهم غير المؤهلة في العمل الدعوي، حتى رأينا بعض عناصر الجماعة وبعض حلفائها يصفون في سفاهة وحمق أنفسهم بالعلماء الربانيين ، ويصفون غيرهم بعلماء الدنيا أو السلطان جهلاً وحمقاً ومغالطةً وافتراء على خلق الله وعباده .

وإلى جانب الكيانات الدعوية الموازية عمدت الجماعة إلى تكوين كيان عسكري مسلح تحت مسمى الجناح العسكري أو الجناح الخاص لجماعة الإخوان المسلمين ، فلما افتضح أمرهم بما ارتكبوه من حماقات و اغتيالات وتفجيرات وإفساد في الأرض أخذوا يُغيّرون سياساتهم بإنشاء كيانات عسكرية لا ترتبط باسم الجماعة ، كجماعة حسم الإرهابية وغيرها ، ثم أخذوا يتوسعون في الكيانات الاجتماعية والمجتمعية والتعليمية فدخلوا في مجال إنشاء المستشفيات، والمدارس، وتوسعوا غاية التوسع في محاولة اختراق بعض الجمعيات إضافة إلى التجمعات والتكتلات السرية التي تعمل على جمع الأموال من الناس فتذهب لخدمة عناصر الجماعة وتسليح الجناح المسلح لها ، مما يجعلنا نحذر المخدوعين بأعمال هذه الجماعات والكيانات الإرهابية بأن ما يدفعونه لها قد يرتد رصاصة غدر في صدورهم أو صدور أبنائهم أو صدور المجتمع ، مما يجعلنا نحذر كل التحذير من خطر التبرع لصالح هذه الجماعات التي تعد خطرًا داهمًا على أمن وسلامة الفرد والمجتمع والوطن .

وأؤكد أن وجود أي سلطات موازية في أي دولة ، أو وجود جماعات ضغط ذات مصالح خاصة بها ، أيًا كان شكل هذه السلطات والجماعات ، فإن ذلك يُشكل خطرًا على بنيان الدول وتماسك كيانها ، وبخاصة تلك السلطات التي تتستر بعباءة الدين وتحاول أن تستمد قوتها ونفوذها من خلال المتاجرة به .

والمقياس الوحيد الذي تقيس به أي دولة أو مجتمع مدى وجود سلطات موازية أو عدم وجودها ، هو مدى قدرتها على إنفاذ القانون على الجميع وبلا أي حسابات أو استثناءات وبلا تردُّدٍ أو توجُّسٍ ، وألا يُسمح لأي جماعة أو شخص بالتمترس بأتباعه للالتفاف على القانون أو تعطيله بالقوة على نحو ما كان يحدث عام الأهل والعشير الأسود ، وأن يسلك الجميع الطرق القانونية في التعبير عن مطالبهم ، وأن يلتزموا بما تقتضيه القوانين واللوائح المنظمة في كل مجال من المجالات ، مؤكدين أننا لا نجيز الاحتيال على القانون ، وأن مبدأ الغاية تبرر الوسيلة الذي تنطلق منه جماعات التطرف قد انحرف بالمجتمع عن جادة الصواب ، وهوى به إلى مزالق خطيرة كادت تعصف به ، مما يجعلنا نحذر بقوة من محاولات بعض الكيانات العود إلى الفكر الإخواني الإرهابي في محاولات إنشاء كيانات موازية لكيانات الدولة وهو ما يجب التصدي له بكل قوة وحسم حفاظاً على هيبة الدولة الوطنية ومصالحها المعترية.

والخلاصة أن أي كيان يشعر بأنه فوق القانون وفوق المحاسبة ويصل الأمر إلى التحسس والتوجس من محاسبته يُعد سلطة موازية تشكل خطراً أو ضغطاً على دولة القانون وعلى إنفاذه ، وأن تطبيق العدالة الشاملة على الجميع وبلا أي استثناءات هو الحل الأمثل لإنفاذ دولة القانون ، وهذا سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : " إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ

أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحُدَّ ، وَإِنِّي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ
لَقَطَعْتُ يَدَهَا" (١).

وهذا سيدنا أبو بكر (رضي الله عنه) يقول عند توليه الخلافة : " يَا أَيُّهَا
النَّاسُ إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ ، فَإِنْ ضَعُفْتُ فَقَوِّمُونِي ، وَإِنْ
أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي ، الصِّدْقُ أَمَانَةٌ ، وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ ، الضَّعِيفُ فِيكُمْ الْقَوِيُّ
عِنْدِي حَتَّى أُزِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ الضَّعِيفُ عِنْدِي
حَتَّى أَخَذَ مِنْهُ الْحَقَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، فَإِذَا
عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ" (٢).

فبالعدالة الشاملة وغير الانتقائية وبإنفاذ القانون على الجميع وإعلاء
دولته ، واحترام سيادة القضاء ، يكون الأمن النفسي والاستقرار المجتمعي .

* * *

(١) متفق عليه: صحيح البخاري ، كتاب الجمعة ، باب مَنْ أَنْتَظَرَ حَتَّى تُدْفَنَ ، حديث رقم ٤٣٠٤ ، وصحيح
مسلم ، كتاب الحدود ، بابُ قَطْعِ السَّارِقِ الشَّرِيفِ وَعَثْرِهِ وَالنَّهْيِ عَنِ الشَّفَاعَةِ فِي الْحُدُودِ ، حديث
١٦٨٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ٤ / ٢٤٠ ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ٢ / ٢٣٤ ، والبداية والنهاية لابن كثير ٥ / ٢٤٨ .

ماذا خسر العالم الإسلامي بظهور الجماعات المتطرفة ؟

لقد ظهرت حركات وطنية في كثير من دول العالم تدعو إلى الاستقلال عن قوى الاستعمار ، بعضها تحت مسمى حركات الاستقلال والأخرى تحت مسمى حركات التحرر أو التحرير ، وقد حقق معظمها أهدافه ووصل إلى ما يصبو إليه دون أن يجعل من الدين ستارًا ، بل إن حركات التحرر والاستقلال الوطني ضمّت في كثير من الدول أصحاب أديان وعرقيات مختلفة ، جمعهم جميعًا وحدة الهدف ومصصلحة الوطن .

أما ظهور أحزاب وجماعات وجمعيات متطرفة تتستر زورًا بغطاء الإسلام فقد جرّ على منطقتنا العربية ويلاتٍ كثيرة ، وبخاصة بعد أن بدت ظاهرة التكسب بالدين أو المتاجرة به واضحة لدى كثير من الحركات والجماعات التي عملت على توظيف الدين لتشويه خصومها من جهة ، وتحقيق مطامعها السلطوية من جهة أخرى ، فصارت محاربة الإسلام تهمة جاهزة لكل هذه الجماعات ، ناهيك عن تجاوز ذلك إلى تهم التخوين والتكفير والإخراج من جماعة المسلمين ، بل الحكم على المخالفين أحيانًا بأن أحدًا منهم لن يجد رائحة الجنة ، وإن رائحتها لتوجد من مسيرة كذا ومسيرة كذا ، وبدا خلط الأوراق واضحًا جليًا عن عمد لا عن غفلة لدى أكثر هذه الجماعات ، بل إن الأمر قد ذهب إلى أبعد من هذا عندما نصّبت الجماعات المتطرفة من نفسها وصيًا على الدين ، مع فقدان كثير من كوادرها لأدنى

درجات فهم صحيح الدين ، وخروج بعضهم علينا بفتاوى ما أنزل الله بها من سلطان ، اللهم إلا سلطان الهوى والسلطة وحب الظهور أحياناً .

لقد رأينا في تجربة الإخوان المرة إلى أي مدى وصل الهوس بالسلطة ، وحب الظهور الإعلامي ، والإحساس غير المسبوق بالنشوة والتميز الذي وصل لدى بعضهم إلى درجة العنصرية المقيتة التي ولدت إقصاء ممنهجاً لكل من لا يسير في ركابهم أو يرضى عنه تنظيمهم ومرشدهم ، حتى لو كان هذا المرشد المزعوم لا علاقة له بسياسة الدول أو قيادة الأوطان ، وقطعوا كل ما من شأنه تحقيق - ولو أدنى درجة - التواصل مع القوى الوطنية والاجتماعية لصالح البلاد والعباد ، فأخذوا يكيلون تهماً ما أنزل الله بها من سلطان ، ويدبرون مكائد مكشوفة لا يليق أن تصدر عن ساسة ولا حتى سوقة لمؤسسات وطنية عريقة ، كالأزهر الشريف وجامعته ، ومؤسسة قضائنا العريق الشامخ ، ولا يخفى على أحد ما كان من حصار المحكمة الدستورية ، وتخفيض عدد أعضائها نكاية ببعض قضاتها ، وما تبع ذلك مما عرف آنذاك بالإعلان الدستوري المكمل أو قُلْ دون تردُّد المكتم ، الذي أريد له أن يجعل من رئيسهم المعزول نصف إله على الأقل ، مما استدعي إلى الذاكرة ما ذكره القرآن الكريم عن فرعون مصر حين قال - كما ذكر القرآن الكريم على لسانه - : { مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ }^(١) ، ولم تسلم مؤسسة وطنية واحدة من محاولة تفكيكها وإعادة

(١) غافر : ٢٩ .

بنائها بطريقتهم ، فإن لم يستطيعوا عمدوا إلى غمزها ولمزها ، أما المفكرون
والمتقفون والإعلاميون فنالهم النصيب الأوفى من تهم الخيانة والعمالة وسائر
الأوصاف التي يعفّ أي مسلم عاقل عن رمي أي إنسان بها بلا بينة ولا
دليل قاطع .

لقد أعطى هؤلاء المستترون بالإسلام الذرائع أكثر من مرة لأعداء الأمة
للتدخل في شئونها تحت مسميات متعددة ، المعلن منها مواجهة الإرهاب ،
ثم خرجت من عباءة هذه الجماعات والحركات والأحزاب جماعات يائسة
أخذت تتبنى العنف والإرهاب والتكفير والتفجير والعمليات الانتحارية
مسلكًا ومنهجًا ، ووجدت بعض قوى الاستعباد المسمى الاستعمار الجديد
في هذه الجماعات اليائسة من التكفيريين والانتحاريين ضالتها ، فتعهدتها
ونمتها وغذتها وأمدتها بالمال والسلاح ، لتحقيق مآربها في تفتيت كيان
المنطقة العربية والاستيلاء على نفطها وخيراتها ومقدراتها من جهة ، وتشويه
صورة الإسلام وربطه بالإرهاب من جهة أخرى ، فبعد أن كان المسلمون
هم رسل السلام إلى العالم أخذت صورتهم تُسوّق على أنها رديف الإرهاب
والقتل والدمار .

لقد صار لازمًا على علماء الأمة المخلصين بذل المزيد من الجهد لعلمهم
يستطيعون أن يصلحوا ما أُفسدَ جراء إجرام تلك الجماعات المتطرفة المتاجرة
بالدين قبل فوات الأوان .

إن هناك كثيرًا من دول العالم التي كانت ترسل طلابها إلى بعض الدول الإسلامية ليتعلموا سماحة الإسلام صارت تتخوف على أبنائها أن يذهبوا إلى هذه الدول خشية أن يتأثروا بأفكار تلك الجماعة فيصيروا وبالأعلى دولهم سواء عادوا إليها أم استقروا مع تلك الجماعات الإرهابية ، كما أن كثيرًا من الدول قد أغلقت أبوابها في وجه أبناء الدول التي ضربتها عواصف الإرهاب بعد أن كانت مفتوحة أمامهم للعمل أو التجارة أو حتى السياحة .

ألا يستحق ذلك كله منا جميعًا العمل على قلب رجل واحد للقضاء على الفكر المتطرف والجماعات المتطرفة ، والعودة بخطابنا الإسلامي إلى معدنه الأصيل السمع النقي ، تحقيقًا لمقاصد ديننا وخدمة لأوطاننا ، وأداءً لواجبنا الإنساني في نشر السلام العالمي وترسيخ أسس العيش المشترك بين البشر جميعًا ، وإحلال لغة الحوار محل لغة الاحتراب والاقتيال كما أمرنا ديننا الحنيف .

* * *

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع	م
٥	مقدمة .	*
١٣	الفصل الأول: العلماء " دعاة البناء " .	.١
١٥	العلم النافع .	.٢
٢٠	العلم المطلق والعلم النسبي .	.٣
٢٣	العلم الكسبي والعلم الكشفي .	.٤
٢٦	رسالة العلماء .	.٥
٣٠	تواضع العلماء .	.٦
٣٣	وجوه العلماء ليست كالحجة .	.٧
٣٧	الخطاب العلمي والخطاب العاطفي .	.٨
٤٠	العلماء والحكاءون .	.٩
٤٢	بين العلم والثقافة .	.١٠
٤٦	الفقه والفهم .	.١١
٥٠	القراءة المقاصدية .	.١٢
٥٤	حديث معاذ عمدة الاجتهاد .	.١٣
٥٧	الفتوى بين الإتاحة والمنع .	.١٤
٦٠	علماء الأمة وعلماء الفتنة .	.١٥
٦٥	خطورة الكلمة .	.١٦

٦٩	من علماء الأمة (علماء صنعوا التاريخ).	١٧.
٧٥	الفصل الثاني: الهدامون " جماعات الضلال "	١٨.
٧٧	المؤدجون (علماء الفتنة) .	١٩.
٨٠	ألف وجه ووجه لجماعة الإخوان الإرهابية.	٢٠.
٨٤	الإخوان وانفصام الشخصية.	٢١.
٨٧	دولة الجماعة الاقتصادية.	٢٢.
٩٠	الخلايا النائمة للإخوان والخطاب المزدوج.	٢٣.
٩٩	عيون الإخوان وجواسيسهم .	٢٤.
١٠٣	هدم الرموز وزعزعة الثوابت .	٢٥.
١١٠	السقوط الأخلاقي للإخوان .	٢٦.
١١٢	مخاطر إيواء الإخوان .	٢٧.
١١٦	نحن نراكم .	٢٨.
١٢٠	مفهوم الصحة بين الحقيقة والتزييف .	٢٩.
١٢٣	خطورة الكيانات الموازية .	٣٠.
١٢٧	ماذا خسر العالم الإسلامي بظهور الجماعات المتطرفة .	٣١.
١٢٩	فهرس الموضوعات .	٣٢.



رقم الإيداع :